عبد الوهاب مطاوع

الرسم فوق النجوم

فريق
متميزون
E-BOOK

الدار المصرية اللبنانية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: الرسم فوق النجوم... للكاتب عبدالوهاب مطاوع إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتب مجمعة لمقالات الراحل
عبد الوهاب مطاوع

الرسم فوق النجوم

عبدالوهاب مطاوع

عن الكتاب..

في هذا الكتاب الممتع، يتحفنا الأديب الكبير الأستاذ عبد الوهاب مطاوع بعشرين موضوعاً من موضوعاته الإنسانية، التي تتميز بها كتاباته، ويتجلى فيها أسلوبه الرفيع الذي يمس شغاف قلوب القراء.

ومن المعروف أن مئات من القراء يلجأون إلى الأستاذ عبد الوهاب مطاوع، حين تعصف بهم مشاكلهم الشخصية، ويحيط بهم ما قد يصادفونه من متاعب الحياة، فيتصورون أنهم قد وصلوا الى طريق مظلم أو مسدود، يطلبون فيه نجدتهم وإرشادهم إلى الخلاص من مشاكلهم أو مواساتهم فيما يعانونه من آلام وأحزان.

وهنا تتجلى موهبة الأستاذ عبد الوهاب مطاوع، التي منحها الله له؛ فيرشد من يلجأون إليه إلى سواء السبيل.. ويعيد إليهم الأمل بعد اليأس والعذاب.

الدار المصرية اللبنانية

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة

أعادتني مراجعة أصول هذا الكتاب لإعداده للنشر إلى أجواء الفترة الزمنية التي كتبت فصوله خلالها قبل سنوات.

فلقد كتبت فصوله منفصلة واحدا بعد الآخر على مدى عامين.. وكان لكل فصل منها باعث أوحى إليّ في حينه بفكرته، وحفزني إلى كتابته.

وحين بدأت إعداده للنشر. استغرقتني ذكرياته.. واستعدت الكثير من الصور والشخصيات التي ألهمتني كتابه مقالاته.. وخيل إليّ أنني أحاورهم من جديد، وأجتر أفكاري عنهم أو معهم..

إن كل كتاب يخطه قلم الكاتب هو بالنسبة له قطعة غالية من الحياة، على حد تعبير الروائي الكولومبي الحاصل على جائزة نوبل جابرييل جارسيا مركيز، وهو أيضا ذوب أفكاره وخواطره وأحلامه وتطلعاته وهواجسه في فترة من فترات الزمن صاغها على الورق..

ولقد استلهمت عنوان هذا الكتاب من الرسالة الوداعية الحزينة التي بثها الروائي الكولومبي الكبير على موقعه الخاص بشبكة الإنترنت، حين علم بتدهور حالته الصحية عقب إصابته بالمرض اللعين، فكتب رسالة يقول فيها للجميع إنه لومنحه الله قطعة أخرى من الحياة، لاستمتع بها أكثر مما تمتع بعمره السابق الطويل، ولنام أقل واستسلم للأحلام أكثر، ورسم فوق النجوم، وغسل الزهور بدموعه، ومحا كل الأحقاد من قلبه.. ولأحب كل البشر.. وطالبهم بألا تحمل قلوبهم للآخرين إلا الحب.. والصفاء..!

ولقد تأثرت كثيراً بهذه الرسالة الوداعية حين قرأتها لأول مرة، وحين كتبت عنها في حينها.. وتجدد تأثري بها مرة أخرى، وأنا أراجع فصول هذا الكتاب فاخترت تعبيرها الفريد عن «الرسم فوق النجوم» عنواناً له.. ورمزاً لآمال الإنسان الحسيرة التي يتطلع إليها أبداً.. ويعجز عن تحقيقها في معظم الأحيان!

عبد الوهاب مطاوع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

.. ولـم أتـعـلـم!

كنت في شبابي أحب صحبة من هم أكبر مني سناً وأسعد بالاقتراب منهم، وأحاول جاهداً اكتساب خبرة الحياة منهم والاستمتاع بأحاديثهم ومعارفهم وذكرياتهم.

وحين كنت في أوائل العشرينيات من عمري كانت «شلتي» المفضلة التي أقضي معها سهرتي اليومية مكونة من مجموعة من الفنانين والصحفيين، أصغرهم في منتصف الخمسينيات من العمر.. وأكبرهم يتخطى عمره السبعين.. ومع ذلك فلقد كنت أجد نفسي بينهم.. وأجلس كالمسحور مصغيًا لأحاديثهم وذكرياتهم.. وأعتبر نفسي صديقاً حميماً لهم مع كامل الاحترام لهم، وكانوا والحق يقال يعتبرونني كذلك صديقاً مقرباً إليهم.. ولا يشعرونني أبداً بفارق السن الكبير بيني وبينهم، ويتعاملون معي بلا أي استعلاء على شبل صغير مثلي في حلبتهم ولا بأي محاولة لإشعاره بالقزمية إلى جوار قاماتهم العالية في الحياة والفن والصحافة.

فلم يذكرني معظمهم بما قاله الشاب في رواية فرنسية للشيخ أسرف في إشعاره بالضآلة وقلة الخبرة والنقص:

ماذا فعلت لكي تعطى نفسك كل هذا الحق في الإحساس بالاستعلاء عليّ؟.. إن كل ما حققته من «مجد» في حياتك هو أنك قد جئت إلى الحياة بلا فضل لك في ذلك.. قبلي بثلاثين عاماً!

وكان إثراؤهم لي بخبرة الحياة يجري بطريقة غير مباشرة ولا محسوسة، إذ كان يكفي أن الاحظهم.. وأرقب تصرفاتهم وسلوكياتهم، وأستمع إلى أحاديثهم، وأسألهم عما يغمض عليّ من شئون الحياة، لكي أتعلم منهم الكثير والكثير بغير أن يمارس أحدهم معي تجربة المعلم والتلميذ ولا أسلوب التلقين المباشر.. وكان أحبهم إلى قلبي وأكثرهم تأثيراً في نفسي وشخصيتي ورؤيتي للحياة هو المرحوم الفنان الكبير محمد عبد المنعم رخا، فنان الكاريكاتير المبدع.. والرائد الذي مصَّر فن الكاريكاتير، وكان فناناً في حياته وعلاقاته الإنسانية وصداقاته.. ومنه تعلمت فلسفته القدرية في الحياة، وألفت سماع عبارته الشهيرة.. التي يرددها في كل الأوقات خاصة في أوقات المحن والأزمات والضيق: خليها على الله!

ثم يتبعها بطلب فنجان من القهوة السادة، يحتسيه بتلذذ واستمتاع شديدين، وكأنه يقضي أسعد أوقات حياته وليس أكثرها عناء.. واستمتعت أكثر وأكثر بسماع ذكرياتهم عن الصحافة والفن، وطرائفهم عن الشيخ زكريا أحمد الملحن العظيم.. وبيرم التونسي شاعر الشعب المبدع، وقد كان الاثنان أصدقاء رخا الحميمين.. وكثيراً ما قضيت الساعات الطويلة وأنا «أنكش» المرحوم رخا بالأسئلة عن زكريا وبيرم اللذين لم أسعد للأسف بمعرفتهما شخصياً. فينطلق رخا يروي عنهما في حب وإعجاب ويستأثر بأسماع من حوله وإصغائهم له بالساعات، حتى نكتشف بعد قليل أن الساعة قد اقتربت من الرابعة صباحاً، وأن حارس مبنى نقابة الصحفيين يقف بالقرب منا «متوسلاً» لنا أن ننهي جلستنا الممتعة لكي يطفئ أنوار المبنى ويستسلم للنوم!

وبسبب انبهاري بأحاديث رخا وشلة الأصدقاء هذه، واجهت في حياتي العملية إشكالية «صغيرة» في التوفيق بين واجباتي في العمل وطموحاتي كشاب في بداية حياته الصحفية، ورغبتي القهرية في ألا أفترق عن رخا وشلته إلا لساعات النوم القليلة.. لكي أستمتع إلى أقصى حد ممكن بأحاديثه وروحه الطيبة المرحة المحبة للجميع حتى لمن آذوه منهم من قبل. ولم يكن من الممكن بالطبع أن «أعتذر» عن عمل لكي أستمتع بصحبة الأصدقاء والأحباء إلى ما لا نهاية، فكان الخيار الوحيد أمامي هو إنقاص ساعات نومي، لكي أتمكن من التوفيق - بقدر الإمكان - بين عملي وصحبتي لهؤلاء الأحباء.. وبالرغم من ذلك، فلم تكن هذه «الشلة» تنجو من تطفل بعض من لو كانوا من «قوم نوح لما ركبت السفينة» كما قال الشاعر الكبير علي الجارم واصفاً أحد الثقلاء.. فلقد كان لرخا أصدقاء عديدون بينهم الظرفاء وأصحاب المثل العليا الذين يتفقون معه في رؤيته للحياة، وبينهم كذلك من لا يتشابهون معه في أخلاقياته ومثالياته.. لكن العشرة القديمة تفرض عليه قبولهم في دائرته، و «الحذر» منهم في الوقت نفسه!

وكان من بين النماذج البشرية العجيبة التي رأيتها مع رخا رجل بدا لي في البداية ثقيل الوطأة على الآخرين، وشديد الصمت والتكبر والتحفظ مع الغرباء، فنفرت منه تلقائياً، وتعمدت التزام الصمت في حضوره إلى أن ينصرف عنا بسلام.. ثم لاحظت شيئاً غريباً هو أن رخا يتكفل سراً بأداء ثمن طلباته في النقابة أو مقهى سوق الحميدية سواء حلّ على الشلة بعد اجتماع شملها.. أو سبقها للجلوس في المقهى ومعه صديق أو صديقان.. ولم أشأ أن أسأل ذلك حفظاً للكرامات، إلى أن «نكشت» رخا ذات مرة ليحدثني عنه فإذا بنفوري منه يتحول إلى حب كبير.. وإذا بي أستقبله في المرة التالية بابتهاج وحفاوة كبيرين، وأحرص على إشعاره باحترامي الشديد له.

فلقد عرفت من رخا أنه قاض بالمعاش، يعيش وحيداً في شقته بوسط القاهرة، على معاش صغير لأنه خرج من القضاء في سن صغيرة، وقبل أن يبلغ السن القانونية فلم يزد معاشه عن مبلغ ضئيل.. أما لماذا خرج إلى المعاش في هذه السن المبكرة، فلذلك قصة غيرت تماماً نظرتي السابقة إليه، فالرجل لم يُخلق ليكون قاضياً، وإنما خُلق فناناً، وهو من حراس الموسيقى العربية المدافعين عنها باستماتة ضد هجوم الإيقاعات الغربية عليها.. وعضو بمعهد الموسيقى العربية، ومن حفظة التراث الغنائي العربي، ويرجع إليه المؤرخون الموسيقيون لاستجلاء بعض ما يغمض عليهم من تاريخ الموسيقى العربية وألحانها المجهولة لديهم. وبسبب تعصبه الشديد للموسيقى العربية، فقد منصبه القضائي قبل أن يبلغ الخمسين من عمره، فلقد كان صاحب «مزاج» فني، إذا استحكم نسي كل شيء واستغرق في العزف على العود وتحفيظ أي منشد يطلب منه حفظ لحن قديم للشيخ المنيلاوى أو محمد عثمان أو كامل الخلعي.. ولقد شاء له سوء حظه أن يزور محكمته الجزئية مفتش قضائي من وزارة العدل صباح أحد الأيام، ليراقب سير العمل فيها، فوجد قاعة المحكمة غاصة بالمتقاضين والساعة تجاوزت الحادية عشرة بكثير، ولم تنعقد الجلسة بعد، ودخل غرفة المداولة فوجد القاضي الفنان

ممسكا بعوده ومنهمكا في العزف والغناء وتحفيظ وكيل النيابة وكاتب الجلسة موشح: منيتي عز اصطباري!

فغادر الغرفة ساخطاً، وكتب تقريره ضد القاضي الفنان .. فلم يمض وقت طويل حتى صدر القرار بإحالته للمعاش أو بإرغامه على الاستقالة، لا أدري على وجه التحديد.. واستراح الرجل من عناء القضاء، وتفرغ لتحفيظ التراث العربي والدفاع عنه.. ثم مضت السنون وأصبح المعاش الذي كان يكفيه في البداية عاجزاً عن ملاحقة ارتفاع الأسعار، فتطوع رخا لتحمل تكاليف جلسته اليومية في المقهى مع كامل الاحترام له ومع حرصه وحرص جميع أفراد الشلة، وحرصي كذلك بعد أن عرفت القصة، على عدم مخاطبته إلا بلقب فلان بك!

كما كان من بين المترددين على الشلة على النقيض من ذلك شخص لم أسترح إليه، على الرغم من مودته الظاهرة لي ولكل أفراد الشلة.. ولقد نفرني منه من هؤلاء الأشخاص الذين يندر أن يجيء ذكر إنسان أمامهم بغير أن يتطوع لأن يروي عنه ما لا يسره سماعه.. ولقد كان أفراد الشلة كثيراً ما يروون عن الغير وعن بعضهم بعضاً الحكايات في حضور أصحابها وغيابهم على السواء، لكن حكاياتهم عن الغائبين تدخل دائماً في باب الطرائف التي لا تسيء إليهم.. وقد يضحكون لها أكثر من بقية أفراد الشلة إذا أعيدت أمامهم.

أما هذا الشخص فلقد كان ممن وصفهم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه «باللحميين» الذين ينهشون لحوم الآخرين في غيبتهم، وأمثال هذا الشخص أشعر إذا فرضت عليّ الظروف مجالسة أحدهم في مكان ما، وبمجرد أن أكتشف «لحميته» بأنني جالس فوق الشوك وأرغب في النجاة من وخزه، ولا أومن أبداً بصدق مودة إنسان من هذا النوع لي مهما يبالغ في إظهارها معتقداً عن حق بأن من لم يدع أحداً جاء ذكره أمامنا دون أن يطعنه في صميم أخلاقياته وشرفه، لن يتورع عقب مفارقتي له عن أن يجعل مني طبقه المفضل الذي يتلذذ بالتهامه بنفس اللذة التي نهش بها من قبل لحوم غيره.. ولا أحب صحبة هذا النوع من البشر ولا الاستماع إلى سمومهم عن الغير مهما يكن موقفي منهم، كما لا أشجعهم أبداً على الاستمرار في مثل هذا الحديث أمامي.. بل لعلي أعتبر حديثهم هذا إهانة شخصية لي قبل أن يكون إهانة لمن يتعرضون له؛ إذ أشعر بأن هذا الشخص قد أشركني معه في إثمه على غير إرادة مني.

وأتذكر قول الإمام الشافعي: «نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به، فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه فيحرص على أن يفرغه في أوعيتكم!».

فماذا «يبهجني» في أن يفرغ مثل هذا الشخص أخبث شيء في إنائه.. في وعائي؟ ولماذا أعطيه مثل هذه الفرصة؟

لقد كنت أتذرع بالأعذار لكي أغادر الشلة إذا تيقنت من أن زيارة هذا الشخص لشلتنا هذا المساء ليست زيارة عارضة تستغرق بعض الوقت ثم يرحل عنا بسلام، وإنما هي زيارة «مقيم» ينوي قضاء السهرة كلها معنا.. وكان أكثر ما لفت نظري

فيه ذات أنه يركز سهامه المسمومة على أحد المرشحين لمنصب نقيب الصحفيين في ذلك الوقت، على الرغم من سابق مودته له.. فقلت بيني وبين نفسي لعل له عذراً لا أعرفه في هذه العداوة الضارية التي لا يراعي فيها أي حرمات ولا حدود، ويسلق خلالها الرجل بلسانه الحاد، وينسب إليه كل الرذائل بلا تحفظ.. ثم انتهت المعركة الانتخابية بفوز هذا المرشح بالذات بمنصب النقيب، ومررت بالمصادفة بعد أيام بمكتب النقيب الجديد فإذا بي أجد ذلك الشخص نفسه جالساً إليه ووجهه يطفح بالبشر والابتهاج والسعادة الطاغية، وهو يزجي إليه التهاني الحارة بفوزه «المشرف» في الانتخابات، ويروي له «بتأثر» كيف أسعده هذا الفوز حتى لقد عوضه عن أشياء كثيرة يفتقدها في حياته.. والنقيب الفائز يستمع إليه في «حب» و «امتنان».. والابتسامة العريضة الصافية تملأ وجهه!

وذُهلت لما رأيت وما سمعت.. فلقد كنت أعرف أن كلاً منهما يكره الآخر في أعماقه كراهية التحريم، ويعرف جيداً حقيقة مشاعر الثاني تجاهه.. وما يقوله عنه في غيبته، ومع ذلك فلقد بدا لي الاثنان وكأنهما طائران متحابان يتناجيان ويتشاربان كؤوس الود والوفاء والإخلاص!

ورويت لأعضاء الشلة في المساء ما شهدته متعجباً منه - فإذا بأحد أفرادها يقول لي ناصحاً: هكذا هي الحياة.. فتعلّم!

ويبدو أنه قد لاحظ عليّ حاجتي إلى تعلم هذا الدرس الفاسد من دروس الحياة العملية فنصحني به... لكني لم أتعلمه والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.. أو لعلي عجزت وهو الأصح عن تعلمه، ومازال من يعرفني عن قرب وبعد هذا العمر الطويل يعرف «غضبي» منه إذا غضبت من ملامح وجهي حين أراه لأول وهلة قبل أن يعرفه من كلماتي له.. ومازلت لا أجد أي مبرر يدفعني لأن «أتظاهر» بمودة من لا أشعر في أعماق نفسي بالمودة الحقيقية له، وأفضل صراحة المشاعر على مداراتها والتظاهر بعكسها ولا أومن بما قاله الشاعر العربي القديم:

يقول لك العقل الذي ميز الحجا

إذا أنت لم تدرأ عدوا داره

وقبل يد الجاني التي لست قادرا

على قطعها وأرقب سقوط جداره

وأفضل أن يعرف من أحبهم، وهم الأغلبية الساحقة من معارفي والحمد لله، مودتي الحقيقية لهم بلا تزيد ولا مداراة، وأن يعرف من لا أستريح إليهم أو أعتب عليهم بعض مالم يرضني من تصرفاتهم، وهم قلة والحمد لله، حقيقة موقفي منهم، ومن الوهلة الأولى.. عند اللقاء.. كما مازلت على الرغم من سنوات العمر والخبرة - عاجزاً حتى الآن عن مجرد «النظر» في وجه من لا أشعر تجاهه بالمودة الصافية في نفس هذه اللحظة، ومازلت أيضاً أتفادى النظر في عيون من

أخذ عليهم بعض مواقفهم منى إذا اضطرتني الضرورة الاجتماعية إلى التعامل معهم ذات يوم!

ولاشك أن كل ذلك ضد الذكاء الاجتماعي المرغوب لتيسير حياة المرء، وتفادي أشواك الآخرين بقدر الإمكان.

ولقد عبر عن ذلك إمام المتقين على بن أبي طالب كرم الله وجهه، على الرغم من أنه هو شخصياً لم يعمل به حين قال: أنكى لعدوك ألا تريه أنه قد صار لك عدوا!

وعبر عن شيء مشابه بطل فيلم الأب الروحي حين نصح ابنه قائلاً:

احتفظ بأصدقائك بالقرب منك

واحتفظ بأعدائك في موضع أقرب!

لكي يكونوا - كما يريد أن يقول - تحت أنظاره دائماً فيتفادى أخطارهم ويجهض مؤامراتهم ضده!

لكن من قال إن أهداف الحياة العملية تستحق كل هذا العناء.. فتقرب إليك الأعداء أكثر من الأصدقاء.. وتتظاهر بما لا تشعر به في حقيقة نفسك.. وتبتسم الابتسامة العريضة البهيجة في وجه من تعلم علم اليقين أنه يتلهف على ذبحك لو استطاع!

لقد رفضت أن أتعلم هذا «الدرس» من دروس الحياة العملية عند البعض، ولست نادماً بعد رحلة العمر على ذلك.

لكني تعلمت على الناحية الأخرى من هذه الشلة من الكبار الكثير والكثير، واستفدت به كثيراً بالفعل في حياتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ساعة الأصيل

مقدمة ناقصة

لسنوات عديدة اعتدت إذا لم أتأخر في العودة للبيت من العمل عن الوقت الملائم، أن أقضي ساعة الأصيل في رمضان جالساً إلى مكتبي الصغير في مسكني «أنظر» في المصحف المفسر، وأحاول استجلاء بعض كنوزه مستعيناً بشفافية العقل خلال الصيام على اكتشاف المزيد من أسراره، أو أمد يدي إلى رفوف مكتبتي لأسحب بطريقة عشوائية أول كتاب تصل إليه.. وأقرأ أو أعيد قراءة بعض فصوله، وأكتشف في كل مرة أنني قد فهمت شيئاً جديداً من قراءتي هذه لم أستوعبه في المرات السابقة.. وقد خطر لي ونحن في الشهر الكريم أن أشركك معي في ثمرات هذه القراءات في أصائل رمضان.

فهل لديك مانع؟

في إحدى قصص مجموعة حكايات حارتنا للأستاذ نجيب محفوظ يروي الأديب الكبير قصة شاب صعلوك لا عمل له ولا مورد، تراءى له يوماً أن يدبر حيلة ينال بها إعجاب فتاة جميلة من فتيات الحارة فاتفق مع أصدقائه الصعاليك على أن يتحرشوا بها، ثم يأتي هو فيصرعهم بضربات تمثيلية وينقذها من بين أيديهم.. ونفذ الأصدقاء اللعبة وجاء عباس الجحش - وهذا اسمه - وانقض عليهم بضربات ساحقة ماحقة فتطايروا أمامه كالجرذان، وانصرفت الفتاة مبهورة بقوته وشهامته فروت لأبيها ما حدث وذاعت قصة بطولته في الحارة بأسرع من البرق وصادف ذلك خلو عرش الفتونة بها، فما أن أقبل في اليوم التالي حتى فوجئ بمن يرحب به قائلاً: أهلاً بالمعلم عباس فتوة حارتنا الذي سيعيد إليها هيبتها الضائعة! وذهل الشاب البسيط، لكن اللقب رن في أذنيه رنيناً مطرباً فساءل نفسه: ولماذا لا يجرب وقد يخدمه الحظ ويستمتع بعز الفتونة اعتماداً على هذه الهيبة الزائفة؟.. ولم يفلت الفرصة فجمع أصدقاءه وتقدمهم إلى المقهى ثم توجه إلى دكة الفتوة الخالية وجلس عليها بكل كبرياء فإذا بالرجال يتسابقون لتحيته وإذا بأعيان الحارة يجيئون إليه يخطبون وده ويقدمون إليه الإتاوات مقابل حمايته لهم! وطابت الحياة لعباس وأصدقائه وتطلع إلى المزيد فتقدم لخطبة الفتاة الجميلة فقوبل طلبه بما يليق به من ترحيب وفخر! وتم عقد القران واستعدت الحارة لزفة المعلم التي لابد أن تطوف بالحارات الأخرى فظهرت لعباس مشكلة مهمة. ذلك أن زفة الفتوة هي الاختبار الحقيقي لقوته وهيبته فإذا اعترضها فتوة إحدى الحارات فلابد أن يخوض معه معركة حقيقية لا معركة تمثيلية ليصرعه ويفوز بالأمان.. لكن عباس لم يتردد طويلاً فهيبته التي تأكدت داخل حارته قد امتدت بالضرورة إلى خارجها وسوف تكفل له الحماية والأمان.. وبدأت الزفة تتقدمها الورود والأعلام ويتصدرها عباس محاطاً بالأعوان، ومضت من حارة إلى حارة بسلام، فطرد عباس الوساوس من صدره وتراقصت الآمال في خاطره، ثم ظهر فجأة فتوة حارة العطوف على رأس أعوانه رافعاً نبوته في تحد صارخ وانحبست أنفاس الرجال واستعد أصدقاء عباس للفرار، لكن عباس أذهلهم بثبات لم يخطر لهم على

بال.. فقد تقدم من فتوة العطوف بجسارة جنونية ورفع نبوته ملوحا به في الهواء، فتقدم إليه الآخر بحذر فلم تهتز شعرة في رأس عباس، وواصل الاقتراب منه بجرأة الأسود، وفي لحظة خاطفة انحرف إلى حارة جانبية بسرعة الصاروخ وأطلق ساقيه للريح وغاب في الظلام! وتجمد الرجال لحظات ثم أدركوا حقيقة الموقف فانفجروا في ضحكات هستيرية صاخبة ولم ير أحد عباسا ولا أصدقاءه بعدها في الحارة، وأصبحت حكايته قصة تروى ومثلاً يضرب على من يوهم الآخرين بقوة موهومة لا وجود لها إلا في خياله ويبتزهم اعتماداً عليها، ثم يصدق نفسه ويفيق في النهاية على الواقع المر بعد خراب مالطة!

ترى كم يتكرر في الحياة نموذج عباس الجحش هذا.. وكم من أمثاله قد رأيناهم وشهدنا فرارهم المخزي عند أول اختبار جدي لأوهامهم ودعاواهم؟!

***

وفي مذكرات الروائي الأمريكي المبدع «ارسكين كالدويل» حكاية غريبة من ذكريات اشتغاله بالصحافة في بداية حياته.

فلقد كان يعمل محرراً بالقطعة في جريدة محلية صغيرة، وهو في العشرين من عمره، وصباح أحد أيام الاثنين وهو بداية أسبوع العمل هناك كلفه رئيس التحرير بالذهاب إلى أحد الفنادق الرخيصة بالمدينة لكتابة خبر عن عامل انتحر بإطلاق الرصاص على رأسه في غرفته بالفندق. فتوجه إلى هناك، ووجد الشرطة تحقق في الحادث.. وحصل على اسم المنتحر، ثم خطر له بإحساس الروائي الذي سيكونه في المستقبل - أن يتقصى ما وراء أسباب انتحاره الظاهرية، فسأل موظف الفندق عما يظن أنه سبب انتحار عامل غريب وحيد جاء إلى الفندق مساء الجمعة.. وأمضى يومي الإجازة السبت والأحد سعيداً يدخن ويحتسي البيرة في البار المجاور، ثم استيقظ صباح الاثنين الذي ينبغي أن يتوجه فيه إلى العمل.. وأطلق رصاصة على رأسه!

فأجابه موظف الفندق بلا اكتراث: لاشيء.. سوى أنه صباح الاثنين الأسود!

وتساءل «كالدويل» متعجباً: وما هو الاثنين الأسود هذا؟

فقال له: إنه اليوم الذي انتهت فيه عطلة نهاية الأسبوع ونهض فيه العامل من نومه.. وقد أنفق آخر سنت من أجره عن الأسبوع الماضي، وليس في جيبه الآن سنت واحد.. وعليه أن يعود للعمل ليعمل ساعات شاقة طويلة كل يوم لاتتناسب مع أجره الضئيل، معتمداً على وجبة طعام واحدة في اليوم يقدمها له المصنع مقابل ثمن يخصم من أجره..

وليس له أصدقاء ولا أهل ولا أمل في حياة أفضل.. ولا هدف سوى البقاء على قيد الحياة حتى يتسلم أجره في نهاية الأسبوع، فيأتي إلى فندق من هذه الفنادق الرخيصة، ويقيم ليلتين ويأكل ويشرب بعض ما يشتهيه في حياته، ثم ينهض من نومه صباح الاثنين مفلساً.. ويسأل نفسه: هل أواصل هذه اللعبة المملة أسبوعا آخر.. أم يكفي هذا؟..

فبعضهم يقرر أن يواصلها أسابيع أخرى، وبعضهم الآخر -كهذا العامل البائس - يقول لنفسه: «يكفيني هذا».. ثم تكون المأساة!

فتساءل «كالدويل»: أيعني ذلك أن الحادث قد تكرر بنفس تفاصيله من قبل؟.. فأجاب الموظف: مرات عديدة في فندقنا.. وفي فنادق مماثلة.. وفي نفس اليوم.. لهذا سميناه.. «الاثنين الأسود» والشرطة تعرف ذلك!

حكاية غريبة حدثت في أوائل العشرينيات في أمريكا، مع بداية الأزمة الاقتصادية العالمية التي اعتصرت العالم كله لعدة سنوات..

ترى كم كان من المحتمل أن نسمع بمثلها في مجتمعات عديدة الآن لولا عاصم من الإيمان بالله ولولا جذوة من أمل في غد أفضل؟.

* * *

بعض الكتب كبعض الأشخاص يحفرون في وجداننا أثراً لا ينمحى حين نلتقي بهم!

ومن هذا النوع من الكتب بالنسبة لي رواية «المحاكمة» أو«القضية» للكاتب التشيكي العجيب فرانز كافكا الذي ولد في براغ، لأسرة يهودية ثرية ومات في فيينا وكان يكتب بالألمانية.

فلقد انبهرت بها حين قرأتها لأول مرة منذ سنوات عديدة، وشغفت بجوها الغريب الغامض الذي يصور قلق الإنسان وخوفه مما يجهله، وإحساسه المؤلم بأنه متهم بجريمة لا يعرفها، ومأخوذ بجريرة لا يطمح إلى أكثر من أن يعرف كنهها!

فكانت هذه الرواية هي بداية تعرفي على عالم كافكا الغريب الذي يترجم - دائماً إحساس الإنسان الخفي بالخطيئة والعزلة.

ويصوره كطائر يطارده قفص حديدي، ليسجنه بين قضبانه، بينما هو يحاول جاهداً الفرار منه، وربما كان لنشأته اليهودية في أوروبا، في بداية هذا القرن، أثر لهذا الإحساس، وزادني شغفاً بأدبه قصة حياة الكاتب نفسه الذي لم ينشر من أدبه خلال حياته إلا أقل القليل، ولولا صديق مخلص له، آمن بأدبه، لما سمع العالم عنه شيئاً!.

فلقد درس كافكا القانون ولم يستطع أن يعيش من التأليف وحده، فشغل وظيفة حكومية في فيينا.. وعاش وحيداً.. الكتابة عبادته كما قال عن نفسه في مذكراته.. وكان شديد البطء والتدقيق في الكتابة، ثم قدم بعض قصصه القصيرة للنشر في الصحف فلم تلق قبولاً يذكر، وقدم لأحد الناشرين كتابا اسمه «التأملات» فنشره له، وسعد كافكا كثيراً بصدوره واشترى منه 10 نسخ وزعها كهدايا على معارفه، ثم اتصل بالناشر بعد شهور يسأله عن مبيعات الكتاب فأبلغه أنه قد باع 11 نسخة فقط.. فلم يتعجب كثيراً لكنه شغل نفسه بمحاولة أن يعرف من هو هذا القارئ الوحيد الذي اعترف بأدبه وأسف كثيراً لأنه لم يستطع اكتشاف شخصيته والتعرف عليه! وواصل كافكا الكتابة لنفسه قبل الآخرين، ولم يكن يشاركه قراءتها والمناقشة حولها سوى صديقه المخلص «برود» ثم مرض بالسل ومات

في مصحة بالقرب من فيينا سنة 1924، وعمره 41 عاما، فعاهد صديقه نفسه على أن يعرف العالم بأدبه وقدم قصصه ورواياته للنشر، ولم يحاول ادعاءها لنفسه فظهرت روايات «المحاكمة» و «القلعة» و «أمريكا» ومجموعاته القصصية الأخرى، فاهتم بها النقاد والقراء.. ثم ما لبثت أن لقيت رواجاً كبيراً، وكف عالم الأدب عن إنكاره لموهبة كافكا وترجمت أعماله إلى معظم لغات العالم، فأكدت أسطورة هذا الأديب الغامض، مرة أخرى، أن العمل الجيد يفرض نفسه دائماً ولو بعد حين.

***

رحل الكاتب البريطاني العظيم جراهام جرين عن عمر يناهز الثامنة والثمانين بعد حياة عريضة تنقل خلالها بين أركان الأرض الأربعة، ورحل أكبر أدباء أيرلندا شوْن أوفالين عن تسعين عاما وشهرين، بعد حياة حافلة بالإبداع، وقبلهما رحل الكاتب العظيم برنارد شو عن عمر يناهز التسعين، وكان يأمل في أن يعيش حتى المائة ويعتقد أن العمر الطبيعي للإنسان ينبغي ألا يقل عن 300 سنة وأن الجنس البشري قادر بالمحاولة على أن يبلغ ذلك تدريجيًا!

وهناك كاتب معروف في الأدب الفرنسي اسمه فونتونيل مات عن مائة سنة بالتمام، وكان منذ صباه حتى يوم رحيله يشرب 5 أو 6 فناجين من القهوة كل يوم، بالرغم من كل ما يقال عن أضرارها.. ومن أنها كانت السبب المباشر في وفاة الأديب العبقري الآخر بلزاك!

وتجاوز الكاتب البريطاني الشهير لورانس داريل مؤلف - رباعية الإسكندرية - السادسة والثمانين من عمره قبل أن تنطوي صفحته.

وقد توقف برنارد شو مرة أمام مفارقة تفاوت أعمار الكائنات الحية، فقال في مقدمة إحدى مسرحياته: إنه لا أحد يعرف لماذا تتفاوت الأعمار في النوع الواحد فيعيش فنان مثل لويجي كرنارو ستين سنة أطول مما عاش الرسام العظيم رافاييل أو الموسيقار العبقرى موزار، أو لماذا يعيش الببغاء عشرة أمثال عمر الكلب مثلاً. والغريب أن شو لم يؤمن كل هذا الإيمان بالحياة إلا بعد أن تجاوز الستين من عمره، وأما قبل ذلك فقد كان يطيل التفكير في الموت وينشغل بكتابة وصيته فيكتبها ويعيد كتابتها عدة مرات كل سنة، حتى إذا بلغ الستين من عمره أهملها، ولم يعد يتذكرها وعاش ثلاثين عاماً لا يفكر خلالها إلا في الحياة! أما الأستاذ العقاد فقد كان يقول إن هناك قاعدة وضعها العلماء من خلال ملاحظة عالم الحيوان هي أن متوسط عمر الكائن الحي يساوي ستة أمثال الفترة التي يستغرقها نضجه، فإذا كان نضج الإنسان يتم في حوالي عشرين سنة، فالمفروض أن يكون متوسط عمره 120 سنة، فإن لم يبلغها فإن ذلك قد يرجع لمخالفته سنن الطبيعة في الغذاء والسكن وإلى الإسراف في إنفاق قواه الجسدية والعقلية!

فما رأيك في هذا الكلام؟ وهل أنت مستعد لأن تعيش عمرك «الطبيعي» وتبلغ العشرين بعد المائة؟

.. ورمضان كريم ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرسم فوق النجوم!

قصاصتان من أوراق الصحف - إحداهما قديمة والأخرى حديثة - عثرت عليهما هذا الأسبوع في ملف أوراقي الذي أحتفظ فيه بما يجذب اهتمامي في الصحف والمجلات.. فأعدت قراءتهما، وتوقفت أمامهما متفكراً ومتأملاً.

أما القصاصة الأولى.. فلقد تعجبت كيف غابت عن ناظري لأكثر من عامين ونصف العام، بالرغم من اهتمامي الشديد بها حين قرأتها لأول مرة.. وتساءلت: تُرى أين قرأت الصحيفة التي اقتطعتها منها؟!.. وكيف اختفت داخل أوراقي طوال تلك الشهور؟!

أغلب الظن أنني قد قرأتها وأنا خارج مصر لأن الصحيفة هي «التايمز» الإنجليزية، وأنا لا أتابعها بانتظام إلا حين أكون على سفر، أما في مصر ومع زحام العمل، وتلال الجرائد والمجلات العربية التي لابد لي من أن ألقي عليها نظرة متفحصة على الأقل كل يوم، إن لم أقرأها كلها - فلست أتابع من الصحف الأجنبية إلا صحيفة «الهيرالد تربيون» الأمريكية.. فلابد إذن أنني كنت وقتها في باريس في رحلتي السنوية إليها، لأن تاريخ العدد الذي وجدته على القصاصة هو 30 يونيو1998 ، وهو موعد الإجازة بالنسبة لي.. ولابد أنني قد اشتريتها من كشك الصحف القريب من مقهى جورج ساندك بشارع الشانزليزيه لأقرأها على مهل، مع رشفات القهوة الفرنسية الممتعة ذات صباح إلى أن يلحق بي أحد الأصدقاء المقيمين هناك.

فماذا استوقفني فيها، ودفعني لأن أقصها من الصحيفة، وأحملها معي في رحلة العودة إلى مصر؟!

إنها تحمل صورة رجل مسن يجلس على ركبتيه أمام سيدة في مثل عمره أو تزيد، وينظر إليها في حب ظاهر وتنظر هي إليه في حنان يشع من نظرتها، وتحمل ملامح وجهيهما معا كل معاني الرضا والابتهاج والاطمئنان والاحتماء بصحبة الرفيق من أنواء الحياة وأما القصة التي تصاحبها فتروي عن رحيل هذا الرجل عن الحياة عن عمر يناهز 87 عاما إثر أزمة قلبية مفاجئة.. وبعنوان يثير التأمل هو: «الرحيل بسبب انكسار القلب»!

يشدني العنوان لقراءة القصة من جديد فأستعيد أحداثها.. و «أتذكر» السبب الذي دفعني للاهتمام بها.. فالرجل هو زوج الروائية الإنجليزية الشهيرة كاترين كوكسن.. ولقد مات بعد 18 يوماً فقط من رحيلها هي عن الحياة عن عمر يناهز 91 عاما!

ولقد رحلت عن الدنيا كما تروي القصاصة في سلام، ويدها في يد زوجها يشد عليها في رجاء، كأنما يناشدها ألا تتركه للوحدة وفراغ الحياة بعدها..

فما أن غربت شمس حياتها بعد طوال إشراق في 11 يونيو 1998 وانتهت مراسم الوداع حتى سقط الرجل مريضاً، وتدهورت حالته الصحية سريعاً، فنقل إلى

المستشفى ورحل عن الحياة.. وقال أقرب الأصدقاء إليه وإلى زوجته الراحلة لمحرر الصحيفة: إنه لم يمت بالمرض.. وإنما بانكسار القلب حزناً على رفيقة العمر.. فلقد كانت هي كل «أسباب الحياة» بالنسبة إليه، وحين ماتت لم يعد لديه ما يدفعه لأن يحيا من أجله!

وأستغرق في قراءة القصة من جديد، فأجد هذين الزوجين قد عاشا معا متحابين متعاطفين، يشد كل منهما أزر الآخر 48 عاماً.. وأعرف أنهما قد تقابلا لأول مرة في أواخر الثلاثينيات من هذا القرن حين جاء الرجل إلى المدينة الصغيرة التي تقيم فيها السيدة «الشابة» وقتها ليعمل مدرساً للرياضيات بالمدرسة الثانوية.. وراح يبحث لنفسه عن سكن مفروش مع إحدى الأسر، فقادته قدماه إلى بيت هذه السيدة.. وأقام لديها.. ولم تكن وقتها قد بدأت كتابة القصص والروايات، وإنما كانت تدرس الأدب.. فسرعان ما تآلفا وتمازجا، حتى أصبحا صديقين متلازمين لايفارق أحدهما الآخر إلا لضرورة العمل القصوى.. وسرعان ماتزوجا في عام 1940، وعاشا حياة دافئة بالحب والعطف والعطاء المتبادل، بالرغم مما اعترضهما من محن وآلام وأحزان.. فلقد فقدت الزوجة الشابة خلال 5 سنوات من الزواج ثلاثة أطفال رضع أنجبتهم تباعاً، ولم يصمدوا لأنواء الحياة، بسبب مرض الدم الوراثي الذي انتقل إليهم منها..

وبعد رحيل الطفل الأخير يئسا من معاودة الإنجاب مرة أخرى.. واستسلمت الزوجة لنوبة من الاكتئاب الشديد لازمتها 15 عاماً كاملة!.. ووقف إلى جوارها فيها زوجها المحب، وأعانها على مقاومتها والشفاء منها.. وشجعها على أن تبدأ الكتابة القصصية مؤكداً لها موهبتها الأدبية، وراح يحثها كل يوم على أن تكتب وتنشر ما تبدعه من قصص لم يكن لها في البداية من قارئ سواه!.. حتى نجت من أخطبوط الاكتئاب.. وذاع اسمها، وأصبحت أكثر الروائيين الإنجليز الذين يقبل عليهم القراء، وتوزع كتبها بملايين النسخ، وتحول 13 كتاباً منها إلى أفلام ومسلسلات تليفزيونية.. وحققت شهرة طاغية وثروة هائلة.. وقال النقاد الذين أرخوا لها: إنه لولا أن شجعها زوجها العطوف على احتراف الكتابة لكانت قد أصيبت بانهيار عقلي، أو انتحرت من جراء مرض الاكتئاب المزمن! وقال الأصدقاء المقربون: إنه قد وقف إلى جوار زوجته يمرضها ويرعاها خلال محنة الاكتئاب، ثم في خمس أزمات قلبية شديدة أصيبت بها بعد ذلك خلال رحلة العمر، وحين أجريت لها جراحة خطيرة قبل سنوات.. وفي كل هذه الأزمات كان هو اليد الحانية التي تربت على كتف زوجته، والابتسامة المشجعة لها على احتمال الأحزان والآلام، والحصن الذي تحتمى به من المخاوف والأخطار.. فلا عجب إذن في أن يقول الأصدقاء المقربون بعد رحيله عن الحياة: إنه بعد وفاتها لم يعد راغباً سوى في أن يكون «معها» حيث ذهبت!

يا إلهي!

لماذا لا نقرأ كثيراً عن مثل هذه الصحبة المخلصة التي يتبادل فيها شركاء الحياة العطف والحب والعطاء.. وترى ماذا كان «عمق» نبع الحب الذي تفجر في قلب

هذا الرجل تجاه زوجته، فظل «ينزح» منه ويعطيها هذا العطاء المتدفق على مر السنين دون أن ينضب أو يجف؟!

وترى ما هو «غور» بئر الحب والعطف والامتنان الذي فاض من قلب هذه السيدة على شريكها.. فتمازج ماؤهما معا واتحدا وحفرا مجرى هذا النهر الدافق من ماء الحياة العذب؟!.. أليست هذه حقا هي الصحبة التي تطيل العمر، وتؤخر الشيخوخة، وتقاوم عوامل الزمن، وتقهر أسباب الموت والشقاء؟!

ولماذا يُكثر الكتاب من الكتابة عن المشاهير والعظماء الذين شقوا بزوجاتهم وحياتهم العائلية - من سقراط إلى نابليون إلى تولستوي إلى الشاعر الإنجليزي ميلتون.. الخ - وعن الشهيرات اللاتي تجرعن التعاسة في حياتهن الخاصة.. ولا يكتبون لنا بالمثل عمن كانت حياتهم سيمفونية جميلة من أنغام الحب والوفاء والعرفان.. كهذين الزوجين؟!

وهل أدركت الآن ياصديقي لماذا اجتذبتني هذه القصة فقصصتها من الصحيفة في باريس، ورجعت بها إلى مصر منذ أكثر من عامين؟!

أما القصاصة الثانية فلقد اقتطعتها من صحيفة أخرى قبل أسبوعين، وأعدت قراءتها أكثر من مرة.. وأثارت في نفسي تأملات طويلة وأشجاناً عديدة.. وكان بحثي عنها وأنا أستعد لأن أكتب لك هذا المقال هو سبب عثوري على القصاصة القديمة، فعجبت لما يربط بينهما من معان وأفكار، بالرغم من اختلاف الظروف! إنها رسالة بثها على شبكة الإنترنت قبل أسابيع الأديب الكولومبي العالمي «جابرييل جارسيا ماركيز» «72عاماً » الحاصل على جائزة نوبل، ومؤلف الرواية الشهيرة «مائة عام من العزلة».. وقد بدت في كلماتها الموحية بالشجن وكأنها رسالة وداع يبعث بها لأصدقائه وتلاميذه وقرائه المنتشرين في أنحاء العالم، بعد تدهور حالته بسبب المرض اللعين في الدم والرئتين.. واستشرافه لقرب النهاية.. فهل تريد أن تعرف ماذا قال فيها؟!

إنه يقول:

«لو وهبنى الله «قطعة أخرى» من الحياة لما كنت سأقول - في هذه الفترة الإضافية من العمر - كل ما أفكر فيه.. وإنما كنت سأفكر في كل ما أقوله قبل أن أنطق به.

ولكنت سأنام قليلاً وأحلم أكثر، مدركاً أننا نخسر مقابل كل دقيقة نغمض فيها عيوننا ستين ثانية من الضوء.

ولكنت أستمتع بكأس الجيلاتي وأرتدي لباساً بسيطاً، وألقي بنفسي إلى الشمس، وأعري روحي كلها تحت أشعتها -

ولكنت قد كتبت أحقادي كلها على قطع من الثلج، وانتظرت طلوع الشمس لكي تذيبها.

ولرسمت فوق النجوم وأهديت القمر سرينادا غنائية وغسلت الزهور بدموعي.

ولما تركت يوما واحدا يمضي دون أن أبلغ الناس فيه أنني أحب «فكرة» أن أحبهم، ولأقنعت كل رجل أنه المفضل عندي، وكل امرأة بأنها الصديقة الأولى..

ولكنت أكدت للرجال أنهم يخطئون حين يظنون أنهم يكفون عن الحب حين يطعنون في العمر.. لأنهم لا يشيخون حقاً إلا حين يكفون عن الحب!

ولكنت أعطيت للطفل أجنحة وعلمته كيف يطير بها، وأكدت للمسنين أن الموت لا يأتي مع التقدم في العمر.. وإنما مع النسيان!

لقد تعلمت أن الطفل الوليد حين يقبض بكفه الصغيرة على أصبع أبيه ويشده لأول مرة فإنه يكون قد ربطه به برباط أبدي!

آه.. لقد تعلمت من الناس أشياء كثيرة.. غير أني للأسف حين أكتبها على قصاصات وأضعها في محفظتي لكي أعمل بها.. سيكون الأوان قد فات، وسأكون قد غادرت الحياة بطريقة غير سارة! «

تُرى.. هل أدركت معي أن ما يجمع بين هاتين القصاصتين - بالرغم من اختلاف الأحوال -- هو أن السعادة في النهاية ممكنة..

ولكن لو تعلم الإنسان فقط كيف يحيا الحياة، وأدرك أن حب الحياة والناس والأشياء والمعاني الجميلة الراقية، هو الطريق إليها، وكذلك لو سما بنفسه عن الصغائر والصراعات والأحقاد؟!.

إن هاتين القصاصتين تقولان لنا بطريقة غير مباشرة: إن «الرسم فوق النجوم»، كما يحلم بذلك ماركيز لو امتد به العمر، ممكن بالفعل.. ولكن بشرط أن يحظى الإنسان بفهم أفضل للأمور كفهم ماركيز لها وهو يتسمع للأسف أنغام الرحيل، أو بصحبة رضية هانئة مخلصة كصحبة الزوجين «كوكسن» في تلك القصة الجميلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكتابة بلسع الألم!

أكتب مقالي هذا بيد واحدة! تسألني: وهل يكتب الكاتب بيديه الاثنتين؟ فأجيبك بأنه يكتب بيد واحدة في العادة.. ولكن يده الأخرى تكون عوناً له خلال الكتابة..

تفتح له هذا الكتاب على الصفحة التي يريد الاستشهاد ببعض ماجاء فيها في مقاله.. ترفع كوب الماء إلى فمه إذا شعر بالعطش.. تقرب منه فنجان القهوة، ليرتشف منه رشفة بغير أن يضع القلم من يده الأخرى، ناهيك عن اعتصار الجبهة باليد الطليقة إذا اشتد به التفكير، أو هرش مؤخرة الرأس لتنشيط الأفكار إذا شعر بخمولها وكلها وظائف حيوية، لا تدخل في فعل الكتابة نفسها لكنها تعين عليها.. ولقد حرمت منها كلها حين بدأت هذا المقال بسبب قلة الاحتراس وسوء التقدير! فأنا أكتب هذا المقال في قرية صغيرة تبعد عن باريس حوالي 60 كيلو مترا.. وقد بدأت الاستعداد للكتابة بالطواف على محالها، باحثاً عن زجاجة حبر باركر، فأنا من كتاب العصر الحجري الذين لا يزالون يرتبطون بعادات معينة، لا تلين لهم أفكارهم في الكتابة بغير الالتزام بها، منها الكتابة بالحبر في زمن كاد الحبر ينقرض فيه من أقلام الكتاب، وعلى ورق أصفر مسطر يتحفني أصدقائي المقيمون خارج مصر بكميات كبيرة منه، كلما رجعوا إلى بلدهم، أو كلما وجدوا زميلاً مسافراً يحملونه هذه الهدية ثقيلة الوزن إليّ.. ولقد طفت بمحال القرية الصغيرة، باحثاً عن زجاجة الحبر المنشودة فلم أعثر عليها.. وسألت سيدة فرنسية في الطريق عن مكتبة أستطيع شراءها منها.. فهزت رأسها في دهشة، وقالت لي إنه كانت هناك مكتبة واحدة في القرية، لكنها أغلقت أبوابها منذ عامين.. وسألت جارسون المقهى الذي اخترته من اليوم الأول لإقامتي في القرية ليكون «مكتبي» الصباحي.. حيث أمضي فيه فترة الصباح مستمتعاً بشرب القهوة، وتأمل الغادين والرائحين، والتلذذ «بالفراغ السعيد» على حد تعبير أستاذنا نجيب محفوظ في إحدى قصصه، فأرشدني الجارسون إلى سوبر ماركت كبير يقع على مسافة عشرة كيلو مترات من القرية ويعرض كل الأشياء من الإبرة إلى الصاروخ كما يقولون.. فشددت الرحال إليه، وتهت طويلاً في «شوارعه» الداخلية وممراته، حتى عثرت على قسم الأدوات المكتبية، ودققت النظر في رفوفه فلم أجد زجاجة حبر واحد، وإنما وجدت خراطيش الحبر الصغيرة المصنوعة من البلاستيك والتي تركب داخل أقلام البقية الباقية ممن يستخدمون الحبر السائل في أعمالهم فاشتريت كمية منها ورجعت إلى الشقة الصغيرة التي أقيم فيها.. وأحضرت كوباً صغيراً وبدأت كفاحي لإفراغ محتوى هذه الخراطيش الصغيرة في الكوب لأصنع منها زجاجة حبر أستطيع ملء القلم منها.. ولعنت وأنا أبدأ «ذبح» أول خرطوشة اللحظة التي عدلت فيها في القاهرة عن وضع زجاجة حبر في حقيبتي خوفاً من أن تنفتح خلال رحلة الطائرة وتلوث ملابسي.. مع أنني كثيراً ما حملت مثل هذه الزجاجة معي إلى شتى أنحاء العالم خوفاً من ألا أجد نوعي المفضل من الحبر عند الكتابة. وبدأت أمسك بالخرطوشة الصغيرة فوق الكوب وأجز طرفها السفلي بصعوبة لكي يدخل تيار الهواء إلى الأنبوبة ويدفع

مابداخلها من حبر إلى الكوب.. فتتساقط بضع قطرات أكثرها على يدي وأقلها في الكوب، ثم أطوح بالخرطوشة الفارغة في صفيحة الزبالة وأمسك بغيرها، وهكذا بضع عشرة مرة، حتى تجمع في الكوب بعض الحبر السائل مختلطاً بقطرات من دم إصبع يدي اليسرى.. وعدت إلى المائدة التي سأكتب عليها بالكوب يراودني الإحساس «بالانتصار» على هذه المشكلة الطارئة ممتزجاً بشيء من الألم لجرح إصبعي، واتجهت إلى البوتاجاز لأرفع غلاية الماء الساخن وأفرغه في البراد المعدني الجديد الذي اشتريته من بقال باكستاني لأصنع الشاي مشروبي المفضل خلال الكتابة، فأذهلني ألم الجرح عن الاحتراس لسخونة البراد المصنوع من مادة رقيقة حديثة تستخدم الآن في صنع مفاتيح المساكن لكي يخف وزنها ولا تثقل الجيوب.. فسرت سخونة الماء المغلي إلى يدي اليسرى الجريحة وأضافت إليها ألم اللسع الحارق.. وتركت البراد يسقط على الأرض وهرولت إلى الثلاجة أضع يدي الملسوعة داخلها بعض الوقت لأخفف عنها الألم.. ثم أخرجت زجاجة ماءٍ مثلجة وأفرغتها على يدي حتى كادت تتجمد من أثر برودتها.. وخف الألم قليلاً لكنه لم يلبث أن عاد مرة أخرى واستمر..

وجلست لأكتب بيدي اليمنى.. ويدي اليسرى مرفوعة من الخدمة.. وكل بضع دقائق يشتد عليّ ألم اللسع فأنهض إلى حوض المطبخ وأفرغ عليها بعض الماء المثلج، ولا تسلني ولماذا لم تضع عليها مرهماً للحروق فيخف الألم بعد قليل؟! فلقد قلت لك من البداية إنني أكتب في شقة خالية في قرية بعيدة في باريس ولا أعرف أحداً فيها وليس بالقرب مني من أستفيد بخبرته في مثل هذا الأمر الطارئ.. ونزولي للشارع لأبحث عن صيدلية سوف يعطلني عن الكتابة التي لابد من الانتهاء منها الآن لأرسل مقالي بالفاكس من مكتب الأهرام في باريس وإلا فاته موعد الطبع في القاهرة..

والشاعر الصوفي القديم يقول:

وكيف يؤمل راحة من عمره

يومان يوم قِلى ويوم تناء

و «القلى» هو الهجر أو المجافاة.. و «التنائي» هو البعد.

وأنا «مهجور» أو مهاجر بصفة مؤقتة إلى هذه القرية الصغيرة لأستريح فيها لفترة قصيرة من عناء العمر وشقاء العمل.. وقد اخترت أن أبدأ رحلتي هذا العام بالانعزال في هذه القرية لبضعة أيام ألتقط فيها أنفاسي بعض الوقت قبل أن أنتقل إلى صخب العاصمة وارتباطاتها، وأمضيت معظم وقتي فيها حتى الآن في النوم والجلوس في «مكتبي الصباحي» بالمقهى القريب أشرب القهوة وأفكر في اللاشيء، وفي قراءة أو إعادة قراءة كتابين من أحب الكتب إلى نفسي وكثيراً ما صحبتهما معي في رحلاتي الخارجية، الأول هو كتاب «كناسة الدكان» للأديب الحبيب إلى قلبي يحيى حقي وهو سيرة ذاتية له وتأملات عميقة وبديعة في أحوال الدنيا والفكر والبشر، والآخر هو «التكوين» لمجموعة من المفكرين والأدباء المصريين، يروي فيه كل منهم قصة حياته والمؤثرات التي أسهمت في تكوينه

الأدبي والنفسي والفكري، لايربطني بالعالم الخارجي سوى التليفون المحمول.. حيث تخلو الشقة التي أقيم فيها من تليفون عادي.. ولولا ضرورة الاتصال بزملائي في مجلة الشباب لأتابع معهم وضع اللمسات الأخيرة لهذا العدد.. لما احتجت إليه، وقد حصلت على الاشتراك المؤقت فيه في اليوم الأول لوصولي إلى فرنسا من محل بشارع الشانزليزيه سبق لي أن تعاملت معه في العام الماضي. دخلت المحل.. قلت للبائع الشاب: أريد اشتراكاً مؤقتاً في التليفون المحمول خلال وجودي في فرنسا. ابتسم في وجهي وا وأخرج استمارة صغيرة من أصل وصورة سجل فيها اسمي .. ورجاني التوقيع في ذيل الاستمارة فوقعت.. ثم طلب مني 267فرنكا فرنسيا (حوالي 134 جنيهاً مصريا) فدفعت ثم أعطاني علبة صغيرة فتحتها وأخرجت منها شريحة التليفون الإليكترونية الدقيقة ووضعتها في جهازي المحمول بدلا من شريحتي المحلية فأصبح لدى تليفون محمول صالح للعمل في فرنسا لمدة عشرة شهور بلا عقود.. ولا إجراءات.. ولا تقديم فواتير للكهرباء أو صور للبطاقات الشخصية.. إلخ. وقديماً قيل إنه كلما ازدادت سهولة الحياة في مجتمع ما، كلما انقرضت منه الإجراءات المعقدة تدريجيا.. فعقبى لمجتمعاتنا والبشر الذين يعانون فيها من صعوبة الأشياء.

والشاعر القديم «هوراس» قد قال ذات يوم ناصحاً شعراء زمانه:

ليس لكاتب أن يستثير بكاء الآخرين مالم يكن هو شخصياً قد بكى!.

ولقد تذكرته قرب اختتامي لهذا المقال إذ احتجت لكوب آخر من الشاي فسخنت الماء وواصلت الكتابة.. ثم نهضت لإفراغه في البراد فنسيت للمرة الثانية خفة المادة المصنوع منها ولسعني من جديد نفس اليد التي لم تبرأ بعد من ألمها.. لسعة أشد من الأولى حتى صرخت من الألم والغيظ في نفس الوقت لاعناً الغباء.. والأغبياء!.. إذ لا عذر لمن لسع من قبل من براد.. في أن يلسع منه مرة أخرى مهما تكن مادته المصنوع منها رقيقة وفي وزن الورقة، وإلا فأين درس التجربة.. وأين الاستفادة من عثراتنا السابقة في تجنب أشواك الحياة؟ ومن هو الحكيم الذي قال: إذا خدعني إنسان مرة فليسامحه الله.. وإذا خدعني مرتين فليسامحني أنا الله؟ لقد سامحت البراد اللعين حين لسعني أول مرة.. فكيف أسامح أنا نفسي حين «كواني» في المرة الثانية.. وجدد التهابات اليد الجريحة؟

ومقالي هذا لم أقصد به استثارة بكاء الآخرين.. فكيف إذن أقنع نفسي بأنني قد أوشكت أن أبكي من الألم مرتين.. لكي تكون الكتابة معبرة بصدق عن «آلام البشر»؟

ولقد بدأت هذا المقال على عكس معظم مقالاتي وليست في ذهني فكرة محددة أعتزم الكتابة عنها.. ولا أعددت له المادة التي سأستعين بها على كتابته كما أفعل في كل مقالاتي، بل لقد كنت معتزمًا أن أكتب حلقة جديدة عن ذكريات الصبا والطفولة التي أسميها «حكايات شارعنا» مستعيناً بهدوء الحياة في هذه القرية الفرنسية على استعادة الذكريات واسترجاع صور الماضي البعيد فإذا بتجربتي الجرح واللسع تجرفاني بعيداً عن هذا الهدف.. وإذا بي أتساءل الآن: بدأنا المقال

بما أملته علينا «الحوادث» فكيف ننهيه إذن؟.. ولماذ أتذكر الآن الشيخ الرئيس ابن سينا الذي شهدت حياته تقلبات عديدة بين العلم والسياسة فنفى مرة وسجن مرة خلال صراع السلطة بين شمس الدولة البويهي وبين علاء الدولة البويهي، وتقلد الوزارة مرتين وقد أنشد حين دخل سجنه لأول مرة:

دخولي باليقين كما تـــــراه

وكل الشك في أمر الخروج!

أي أن «المؤكد» هو أنه قد دخل السجن، أما الخروج منه فمشكوك وكذلك الحال في هذا المقال.. الذي بدأته «باليقين» كما رأيت «وكل الشك» في أمر الخروج منه!

فهل عندك فكرة مناسبة لاختتامه؟

أم ترى هل تتجاوز كرماً منك وفضلاً عن ضرورة اختتامه بخاتمة منطقية تتناسب مع بدايته.. تقديراً منك «لظروفي» و «غربتي».. و «وحدتي» في هذه القرية الفرنسية الصغيرة.. وتلهفي على إنهاء المقال لكي ألحق بموعد المقهى القريب قبل أن يزدحم بالرواد.. ويقل مرور المارة أمامه.. وتأملهم ومراقبة أحوالهم كما تعلم هما سلواي ومتعتي في هذه الأجازة القصيرة «المسروقة». من جفاف الأيام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كشف حساب

عدت إلى بيتي تلك الليلة متأخراً كعادتي، والساعة تقترب من الثانية صباحاً. وضعت حقيبتي الجلدية في مكانها التقليدي بجوار المكتب، وتسللت في حرص إلى غرفة النوم، وخلعت ملابسي في الظلام، محاذراً أن يصدر عن حركتي صوت ينبه النائمين من نومهم.

وارتديت «البيجامة» والروب المنزلي.. وبحثت عن «الشبشب» في عتمة الغرفة، حتى وجدته، وغادرت الغرفة، وأغلقت بابها ورائي برفق.

اتجهت إلى المطبخ، ووضعت براد الشاي فوق النار، وتناولت عشائي الخفيف واقفاً بجوار الموقد في انتظار الشاي.

لاحظت خلال الفترة الأخيرة ضعف شهيتي لكل أنواع اللحوم والدواجن والأسماك بلا استثناء، بل وضيقي أيضا بمذاقها إذا أرغمت نفسي على تذوقها، وفسرت هذا الزهد المفاجئ بأن النظام الغذائي الذي ألتزم به منذ حوالي ست سنوات قد يكون مسؤولاً عن ذلك... فأنا أتناول الطعام بلا أي دسم من أي نوع، ولا أتناول من أنواع البروتين سوى شريحة صغيرة من لحم البتلو، أو صدر الدجاج، فوجدت نفسي بعد طول الاعتياد على ازدراد هذا الطعام الذي لا طعم له؛ أزهد تدريجياً في كل اللحوم والدواجن والأسماك، وأكاد لا أطيقها، وخيل إليّ أنني أمضي بخطوات حثيثة في طريقي لأن أصبح إنساناً نباتياً، لا يأكل إلا مما أخرجته الأرض من ثمراتها. ولم أنزعج لذلك... فلقد قرأت كثيراً عن النباتيين، وكيف استطاعوا أن يستغنوا في حياتهم عن أكل اللحوم، ويحتفظوا رغم ذلك بحيويتهم وصفاء أذهانهم حتى نهاية العمر، ومن أشهرهم عندي: الأديب الأيرلندي العظيم برنارد شو، الذي كان يكره اللحوم كراهية التحريم، وينفر من أن يُنشب الإنسان أنيابه في لحوم غيره من الكائنات الحية، فلم يكن يفرض طعامه النباتي على ضيوفه، **ولم يكن يمانع في أن يقدم إليهم على مائدة الطعام دجاجة مقتولة «غيلة» على حد تعبيره!، كما كان يحب أيضاً الزهور، لكنه يأنف من «قتلها» وقطعها من أشجارها، لكي يستمتع الإنسان بمنظرها ورائحتها بضع ساعات تموت بعدها. وقد لاحظ أحد الصحفيين خلو منزله من أي «فازة» للورود، رغم غرامه بالزهور، وسأله عن ذلك، فأجابه بسخريته اللاذعة: لا عجب في ذلك.. فإنني أيضاً أحب الأطفال، لكني لا أقطع رؤوسهم لكي أضعها في فازة!**

وقد سمعت أيضاً عن بعض من يحرصون على أن يعتمدوا في غذائهم على ما يسمونه بالطعام القرآني، أي الطعام الذي ورد ذكره في القرآن كاللبن، والعسل، والعدس، والثوم، والقثاء، والفول، والبقول، إلخ. ويرون فيه أفضل أنواع الطعام، وأكثرها فائدة صحية، لكني لا أستطيب منها للأسف سوى منتجات الألبان وحدها، ولا أذوق اللبن نفسه، ولا أحتمله، أما العسل، فقد كنت أتناوله بانتظام، حتى عرفت أن الإكثار منه يتعارض مع برنامجي الغذائي لتخفيض نسبة الكوليسترول في الدم. وحين لاحظت على نفسي زهدي في اللحوم بكل أنواعها، استسلمت فترة

لوهم الاعتقاد المريح أنني أتجه تدريجيا إلى مرحلة جديدة من «السمو الروحي» الذي يتحقق فيه صفاء الذهن.. وانطلاق الروح من قيودها ورغائبها إلى آفاق عليا!، فإذا بزميلة تصدمني منذ أيام بقولها لي إنها قد سمعت طبيباً كبيراً يقول في التليفزيون أنه إذا لاحظ الإنسان على نفسه نفوراً غير مفهوم له من تناول اللحوم والدواجن، فعليه أن يعرض نفسه على الطبيب، ليتأكد من سلامة الكبد والمرارة عنده، لأن هذا الزهد المفاجئ في اللحوم قد يكون من الأعراض المبكرة لبعض متاعب الكبد والمرارة!... فأنزلتني بذلك هذه الزميلة من آفاق «السمو الروحي» العالية إلى هاوية المخاوف المرضية السحيقة، وفكرت جدياً في استشارة الطبيب في أمري!.

حملت الشاي إلى مكتبي .. وجلست أراجع بروفات كتاب جديد لي يصدر في يناير. واستغرقتني المراجعة حوالي ساعتين، ثم طويت الصفحات، وقاومت رغبتي في كتابة بعض الالتزامات الصحفية، وراغمت نفسي على دخول فراشي «مبكراً» لأحاول النوم، استعداداً لليوم الطويل الذي ينتظرني في الغد.. فغدا الأربعاء، وهو يوم الاحتجاب الأسبوعي، الذي أنقطع فيه عن الذهاب إلى عملي، وعن كل مشاغل الحياة الأخرى، لأقرأ رسائل المهمومين، وأكتب باب بريد الجمعة. وهو يوم طويل حقاً، يبدأ من ظهر الأربعاء، ولا ينتهي إلا ظهر الخميس، حين يجيء مندوب من الأهرام ليتسلم مني مقالي، فأسلمه له، وأخرّ صريع الإجهاد، وقلة النوم حتى المساء. وقد لاحظت بعد سنوات من الممارسة و التكرار أنني أنهض من نومي صباح الأربعاء شبه مكتئب نفسياً، بلا سبب واضح، اللهم إلا ترقبي لما ينتظرني فيه من عناء ثقيل.

قرأت في فراشي بعض الوقت، ثم سقط الكتاب من يدي، واستسلمت للنوم، آملاً ألا أصحو منه قبل الظهر. وكثيراً ما حلمت - وفي ليلة الأربعاء بالذات - «بنوم المغفلين» الذي يقصده المثل الإنجليزي الذي يقول: ست ساعات كافية لنوم الرجل، وسبع للمرأة، وثمان للمغفل!، فتأبى الظروف إلا أن تحرمني من نوم «المغفلين»، مع أني طالما استمتعت به، وبأكثر منه في شبابي!.

هل نمت على الفور؟ هل حلمت بشيء؟ هل تنبهت من نومي بعد لحظات كعادتي، وراغمت نفسي على محاولة النوم من جديد؟.

لست أذكر شيئاً من ذلك، لكني أحسست شيئاً آخر غريباً، هو أنني أهتز بعنف، وبأن الفراش يهتز بي ومعي .. فهل يهزني أحد بشدة لكي أستيقظ من النوم؟... لكن لماذا يهزني بهذه الطريقة العنيفة، وأنا أتنبه بسهولة لمحاولات إيقاظي؟. لا، ليس الأمر كذلك.. إنني أركب سفينة تتمايل بي للأمام وللخلف، وتتلاعب بها الأمواج، فمتى ركبتها؟ ومن أي ميناء؟. هل أنا صاح مستيقظ، أم نائم يحلم؟، ولماذا أشعر وكأني معلق في الهواء، ولست مستقراً فوق سطح ثابت؟.

فتحت عيني مرتعبًا، فإذا بي أرى زوجتي جالسة في الفراش منزعجة.. ونجفة غرفة النوم تتأرجح بشدة، والفراش يميد بي أماماً وإلى الخلف، كأنه قارب في نهار، يا إلهي.. إنه ليس حلماً مخيفاً .. بل الزلزال المفزع.. فأين المفر يا ربى..

أين المفر؟ ماذا ينبغي للإنسان أن يفعل في هذه اللحظة؟ أين تركيز العقل والذهن لكي يستعين به على مواجهة أقداره؟ لا شيء من ذلك.. ولا شيء سوى الجهر بالشهادة، وترقب ما سيلي اللحظة من أهوال.

لقد ذهبت الحيلة.. فلا حيلة.. ولم تبق إلا مواجهة الأقدار.. فكيف ستكون يارب الخطوة التالية؟ أهي ركام وحطام وسباحة مرعبة في الهواء، ثم سقوط مدمر من حالق فوق الأنقاض؟ وكيف سيكون ألم الارتطام، ووقع تكسر العظام؟ أهكذا تجيء النهاية يارب، ودعائي لك آناء الليل وأطراف النهار من دعاء بعض الصالحين:

رب هبني حياة بلا مهانة.. وموتاً بلا مساءة.. وقيل في تفسيره أنه الموت بلا ألم ولا عذاب.. فأي عذاب أشد يارب من هذا العذاب؟. تذكرت فجأة ابني وابنتي؛ فنهضت مذعوراً من الفراش، وأنا أصيح في زوجتي: هيا، وخرجت إلى الصالة لأبحث عن ابني، فإذا بهما واقفان فيها، وآثار النوم في عيونهما.. وشحوب الهول في وجهيهما.. ماذا تنتظران؟ هيا.. هيا، واتجهنا إلى باب المسكن، وفتحنا الباب ونحن لا ندري ما نفعل.. فإذا برجال ونساء يهرولون على السلالم بملابس النوم، والفزع يسوقهم، وأفواههم لا تنطق إلا بعبارة التوحيد.. ولفظ الشهادة.. الجميع.. الجميع بلا استثناء ينزلون السلم ويهتفون: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله)، كأنما (يسيرون) في موكب جنائزي يمضي إلى مصيره المعلوم.

وخطونا على السلالم بضع خطوات، كأنما لم نستفد شيئا من تجربتنا الأولى مع زلزال أكتوبر 1992، ولم نتعلم شيئاً من إرشادات الأمان التي حذرتنا من هبوط السلم، أو ركوب المصعد، أو الخروج إلى الشرفات في وقت الهول - لم نتعلم شيئاً بالفعل.. ولم نحذر شيئاً، إنما فررنا بلا حذر من قضاء الله.. إلى قدره، وتركنا أنفسنا لما تجري به المقادير، فلاحقتنا صيحات الأمان من بعض سيدات العمارة تطالبنا بالعودة.. فقد توقف الزلزال!. نعم توقف الزلزال.. ولاتزال العمارة قائمة بحمد الله.. ولا نزال أحياء نتنفس ونلهث، فرجعنا إلى مسكننا بعد لحظات، خيل إليّ أنها سنوات. وتنبهت إلى أن ابنتي تبكي، وابني يمسك برأسه ويشكو من صداع قاتل، لعله من أثر الخوف، فاحتضنتهما، محاولاً أن أهدئ من روعهما، وأدركت فيما بعد أنني كنت أقول لهما بغير وعي: اشكروا الله.. اشكروا الله.. فنحن مانزال أحياء.. نحن مانزال أحياء!.. فهل الموت مخيف حقاً إلى هذا الحد؟، وهل خطايانا ثقيلة في الميزان إلى الحد الذي نفزع فيه هكذا من اقتراب ساعة الحساب؟.

لقد قرأت في بعض الكتب أن الإمام أبا حامد الغزالي نهض من نومه صباح يوم اثنين، فتوضأ وصلى، ثم طلب كفنه، فأخذه وقبله ووضعه على عينيه وقال: سمعاً وطاعة للدخول على الملك، ثم مد رجليه، واستقبل أي توجه برأسه ناحية القبلة وانتقل إلى رضوان الله تعالى!.

وأذكر أنني حين قرأت ذلك نقلاً عن كتاب «الثبات عند الممات» لابن الجوزي أنني قلت لنفسي وقتها: هكذا يموت الصالحون، فهم حقاً من لا خوف عليهم، ولا

هم يحزنون.

لكني قرأت بعد ذلك أيضا أنه حين حضرت الوفاة العابد القانت أمير المحدثين أبا سفيان الثوري، جزع جزعاً شديداً، وهو مَنْ هو تقى وصلاحاً، فقيل له: يا أبا عبد الله ما هذا الجزع؟. ألست تذهب إلى من عبدته وفررت ببدنك إليه؟، فقال: ويحكم.. إنني أسلك طريقاً لم أعرفه، وأقدم على رب لم أره.

فتساءلت منزعجاً: وكيف إذن بأمثالنا ممن ثقلت الأرض بخطاياهم، وضعفت همتهم في العبادة؟. إن من الصالحين أيضا من يجزعون للموت مثل جزعنا، لأنهم يُقدمون معه على طريق مجهول، ودرب لم يعرفوه من قبل، فكيف لأمثالنا بمثل هذا «الثبات» الذي تحدث عنه ابن الجوزي (رضوان الله عليه)؟.. بل وكيف لأمثالنا ببعض صفات المؤمن التقي، كما حددها إمام المتقين على بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه في «نهج البلاغة»، فقال عنه إنه «في الزلزال وقور، وفي المكاره صبور.. وفي الرخاء شكور، لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب. نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة.. أتعب نفسه لآخرته.. وأراح الناس من نفسه»

نعم، كيف لأمثالنا بمثل هذا الوقار في «الزلزال» يا سيدي الإمام؟. لقد جزعنا كما يجزع الآخرون.. وتهيبنا المجهول الذي لا نعرفه، والدرب الذي لم نسلكه من قبل، وجلسنا بعد النجاة منه لاهثي الأنفاس.. شاحبي الوجوه.. فاقدي الرغبة في الأشياء.. يساورنا الخوف من «التوابع» التي ستليه.. وهواجس الفزع من أن يتكرر بعد قليل، وسجدنا لله شاكرين أن نجانا مما كنا فيه، ودعوناه اللطف بنا في القضاء، والنجاة مما نخاف.

ثم أسرعت إلى التليفون، فاتصلت بأمي في مدينتها الصغيرة، وإخوتي الذين تفرقت بهم البلاد، وتبادلنا عبارات الاطمئنان، والحمد لرب العالمين على لطف القضاء، ثم وجدت نفسي بعد ذلك جالساً إلى مكتبي ساهماً وزاهداً في فعل أي شيء، وأنا أتساءل في داخلي: لماذا كان فزعي من الزلزال هذه المرة أكبر منه في المرة الأولى في أكتوبر 1992؟ هل لأنه في المرة الأولى قد وقع وقت العصر وأنا متيقظ ومنتبه، فسمح لي ذلك بأن أفكر للحظات فيما ينبغي لي أن أفعله في هذا الموقف؟، أم لأن «خبرة الألم» في الزلزال الأول وضحاياه قد تنبهت في أذهاننا فجأة في اللحظات الأولى، وأفزعتنا من احتمال تكرار أهواله؟.

ووجدت نفسي بغير إرادة أراجع حياتي خلال السنوات الثلاث، التي فصلت بين زلزال أكتوبر 1992، وزلزال نوفمبر 1995، وأتساءل صامتاً: هل تراني قد ارتكبت خلال هذه السنوات الثلاث كبيرة من الكبائر التي نهانا عنها ديننا الحنيف؟. هل آذيت أحداً عامداً متعمداً؟. هل قصرت في حقوق ربي، أو تعديت حدوده؟. هل، وهل.. هل.. واستغرقت في حساب مرير لنفسي لم أنته منه إلا بعد وقت طويل.

إن من المؤسف حقا أن الإنسان قد يؤلم الآخرين أحياناً بغير قصد منه، وقد يسيء إليهم من حيث لا يدري، بسوء الفهم، وقلة الإدراك، ولهذا.. فقد قال عالم نفسي

أمريكي إنه لا يكفي أن يكون الإنسان شريفا ونيته طيبة، بل يجب أن يكون أيضا متمتعاً بحسن الإدراك والفهم، لأننا قد نسيء إلى الآخرين بعدم الإدراك، وبعدم الفهم أحياناً بأكثر مما قد نسيء إليهم بالقسوة.. والظلم، لكنه من رحمة ربنا بنا أنه لا يحاسبنا إلا على نياتنا، وإلا على ما نقترفه في حقوق الآخرين من أفعال بنية الإيذاء والإيلام، وليس عن غير قصد.

ولقد تذكرت فجأة أنني حين تعرضت لمحنة الزلزال الأولى في 1992، قد رجعت من نفس رحلة الفزع المهرول على السلالم، فأديت صلاة الشكر، وقرأت بعض آيات الذكر الحكيم، فكان من بين ما قرأته للصدفة العابرة.. هذه الآية الكريمة من سورة التوبة: «رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ».

لقد أرجعنا الله سبحانه وتعالى بكرمه ورحمته من رحلة الهول الأولى، فهل تراني قد وفيت بعهدي، وعملت عملاً صالحا؟

لقد من الله سبحانه وتعالى على خلال هذه السنوات الثلاث بأداء فريضة الحج وبأداء العمرة مرتين، فهل كان هذا كافيا؟، أم تراني قد نسيت، ونسى غيرى؛ فأراد الله سبحانه وتعالى أن يذكرنا بما نسينا؟. إن كان الأمر كذلك حقا، فلقد صدق على وعلى أمثالى قول

الشاعر:

احزن على أنك لا تحزن

ولا تسيء إن كنت لا تحسن

واضعف عن الشر كما تدعى

ضعفاً عن الخير، وقد يمكن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحب الضائع!

قد يقع الإنسان أحياناً في هوى المكان كما يقع عاشق في هوى امرأة جميلة تخلب لبَّه

هذه حقيقة نفسية يعرفها الكثيرون، لكنهم قد لا يتصورون عمق هذا النوع من الهوى لدى البعض أو مدى تأثيره في حياتهم.

وإلا فكيف يفسر لي أحد مثلاً لماذا يفضِّل الإنسان في حياته اليومية أن يجلس أمام التليفزيون في مقعد بعينه لا يستريح إذا شغله سواه، ولا يستقر هو إلا إذا جلس فيه، أو لماذا ترفض الأم العجوز - مثلاً أن تغادر بيتها الذي عاشت فيه حياتها لتنتقل للإقامة في بيت أحد أبنائها رغم وحدتها في بيتها، ورغم إلحاح الأبناء عليها بذلك وتوافر الراحة في البيت الجديد.

إنه نوع من الحب الذي يشمل المكان.. والجماد والنبات، وأبرز أمثلته حب الإنسان الفطري لمسقط رأسه وحنينه الدائم إليه، وحبه للمدينة التي قضى فيها سنوات صباه وشبابه حتى ليتوجع إذا اضطر إلى هجرها، كما شعر الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - بالأسى حين اضطر للهجرة من مكة إلى المدينة، وقال وهو يغادرها حزيناً ما معناه: والله إنك لأحب البلاد إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت.. ومنه أيضاً إحساس الإنسان بالحنين إلى المكان الذي تلقى فيه دراسته خارج بلده ورغبته في العودة إليه، وإلى البيت أو الغرفة التي أقام بها حين كان طالباً، كما فعل توفيق الحكيم حين قبل وظيفة صغيرة بهيئة اليونسكو في الستينيات ليرجع إلى معشوقته باريس التي درس للدكتوراه فيها في العشرينيات وراح يبحث عن البيت الذي كان يقيم في إحدى غرفه، وصدم بأنه قد تمت إزالته وأقيمت مكانه عمارة حديثة.

وأنا واحد من «ضحايا» عشق الأمكنة، الذين تتوزع مشاعرهم على عدد كبير من الأماكن تنتشر فوق الكرة الأرضية، وأشعر تجاه كل واحد منها بالشوق والحنين، ابتداء من مدينتي الصغيرة، التي عشت فيها طفولتي وصباي بريف الوجه البحري بمصر، إلى مدينة الإسكندرية التي عشقتها في سن الشباب، إلى القاهرة التي «أدمنت» الحياة فيها حين التحقت بجامعتها إلى الحد الذي لا أتصور معه لنفسي حياة أخرى خارجها، إلى باريس التي خلبت لبي حين تعرفت عليها لأول مرة منذ 20 عاماً، وإلى أمستردام التي اكتشفتها للأسف متأخراً قبل عدة أعوام فقط، وضممتها إلى قائمة الأمكنة التي أريد العودة إليها من جديد، إلى تلك القرية الجبلية الصغيرة التي تقع على الحدود بين النمسا وإيطاليا، التي أمضيت فيها ليلة سعيدة منذ 25 عاماً، ووقعت في هوى سحرها الجبلي، ثم غابت عني وغبت عنها للأبد، فكأنها حلم جميل لم يبق منه سوى الذكرى!

وأما قصتي معها فلقد بدأت حين سافرت إلى ميونيخ في ألمانيا لأشتري منها سيارة أرجع بها إلى ميناء فينيسيا بإيطاليا لأركب الباخرة المصرية عائداً لبلدي.

واشتريت السيارة، وبدأت رحلتي بها عبر 3 دول لأصل إلى فينيسيا متسلحا بخريطة توضح لي الطريق، وقررت أن أقضي الليل في مدينة إنسبروك النمساوية خلال الرحلة، ثم أستأنف السفر صباحاً إلى إيطاليا، وواصلت السفر على الطريق وحيداً ومتهيباً القيادة على الطريق الدولي بغير سابق تجربة، وتسمرت عيناي على لافتات الطريق لأطمئن إلى أنني أسير في الاتجاه الصحيح، إلى أن عبرت بوابات الحدود الألمانية إلى الحدود النمساوية، ومنيت نفسي بقرب الوصول إلى مدينة إنسبروك وقضاء الليل فيها، لكنني وجدت الطريق خالياً، والقيادة عليه ليست بالخطورة التي تصورتها في البداية، فواصلت السير فيه، وقد بدأت أشعر بالثقة في «خبرتي» بالطرق الأوروبية إلى أن وجدتني فجأة أمام بوابات الحدود الإيطالية، واكتشفت أننى قد عبرت أرض النمسا دون أن أتوقف بها، فعبرت الحدود وقت الغروب، وخرجت من الطريق الدولي السريع «الأوتوسترادا» إلى الطرق الفرعية الجانبية باحثاً عن فندق صغير بإحدى المدن القريبة، وتوقفت أمام أكثر من فندق، ودهشت لعدم وجود غرفة خالية به رغم صغر المدن وقلة الحركة السياحية فيها، فأوغلت في السير في الطرق الفرعية حتى وجدتني - أمام قرية جبلية صغيرة أو على الأصح أمام بيتين أو ثلاثة بيوت ترقد في سفح جبل مغطى بالخضرة، ولمحت على أحد هذه البيوت لافتة صغيرة تحمل كلمة «فندق» فاتجهت إليه واستقبلتني سيدة إيطالية متوسطة العمر، رحبت بي وقادتني إلى الدور العلوي من البيت فوجدت به أربع غرف لاتزيد، هي كل غرف الفندق، دخلت إحداها فوجدتها واسعة وجميلة، وفراشها نحاسي ووثير، ونافذتها تطل على سطح الجبل الأخضر الساحر، فأخذت بالمنظر ووقفت لحظات أتامله، ثم تذكرت جوعي فهبطت إلى الدور الأرضي، وحاولت التفاهم مع صاحبة الفندق التي لا تعرف سوى الإيطالية، ففهمت منها بصعوبة أن موعد العشاء قد فات، وأن المطعم قد أغلق أبوابه فوقفت حائراً أردد كالأبله الكلمة الوحيدة التي كنت أعرفها في ذلك الوقت من الإيطالية بعد «بونجورنو» أي صباح الخير و «جراتسي» أي شكراً و «سنيوريتا»، و «سنيوري» بمعنى السيدة والسيد، وهي كلمة «مانجريا» أي طعام، وأما السيدة فقد تفكرت للحظات، ثم ابتسمت وأشارت إليّ بأن أتبعها إلى المطبخ، وفتحت الثلاجة وأشارت إلى 3 أطباق كبيرة تحمل اللحم والدجاج والإسباجيتي، وكأنها تسألني ماذا تريد؟ فأشرت إلى اللحم والإسباجيتي، فأخرجت الطعام ووقفت تطهوه، أو تسخنه بمعنى أصح، وهي تشير لي بالتوجه للمطعم، وبعد قليل جاء الطعام ساخناً وشهياً، فشعرت بكل امتنان الدنيا لهذه السيدة الإيطالية الرحيمة! وتناولت طعامي بشهية كبيرة ونمت نوماً عميقاً في فراشي النحاسي الجميل، وصحوت مبكراً فنزلت نشيطا إلى «فراندة» الفندق المطلة على سفح الجبل، وجاءت السيدة الكريمة بإفطاري فتناولته وشربت القهوة الإيطالية البديعة، وشعرت بالرغبة في عدم مغادرة المكان إلى الأبد، فتجمدت في مقعدي بالشرفة أتأمل الطبيعة الجميلة من حولي، وأشعر بسلام عجيب، وكلما لمحت السيدة الطيبة تمر بالقرب مني أشرت إليها طالباً القهوة أو الشاي، حتى ضحكت في آخر مرة ورفعت أصابعها برقم 4 أو 5 كأنما تحصي عليّ عدد فناجين القهوة والشاي التي شربتها، وكل ذلك وأنا مبتهج وسعيد فالمكان

جميل، والسيدة الإيطالية عطوف وودود وجميلة، ولولا ارتباطي بموعد الباخرة التي لابد لي أن ألحق بها في فينسيسا لما شعرت بالرغبة في مغادرة هذا المكان قبل أسابيع. وقرب الظهر تحركت من مقعدي كارهاً، وتوجهت للسيدة طالباً الحساب، فكتبت لي على ورقة صغيرة رقما نظرت إليه متشككاً، فقد وجدته يوازي وقتها حوالي عشرين دولاراً فقط، شاملة المبيت والعشاء والإفطار وفناجين القهوة والشاي.. وسحر المكان.. والسلام النفسي الغريب الذي أشعرني به، ودفعت حسابي شاكراً وممتناً، وغادرت المكان وأنا أعد نفسي بالعودة إليه مرة أخرى وقضاء أكثر من إجازة فيه، فهل تصدق أنني لم أستطع العودة إليه بعد ذلك أبدا؟ وهل تصدق أنني نسيت للأسف اسم هذه القرية فلم أعد أذكره، وأنني حين سمحت لي الظروف بالسفر مرة أخرى إلى إيطاليا بعد عشر سنوات قد فشلت في الاهتداء إليها لأن قرى الجبل كثيرة، ومتشابهة في شمال إيطاليا وغربها، ولأنني كنت قد نسيت الطرق الفرعية المعقدة التي سلكتها إليها؟ إن هذا «حب» اندثر، وفرقت بيني وبينه الأعوام وقلة خبرتي وقتها بفنون عشق الأمكنة!

ولقد استفدت من درس هذا الهوى الضائع بعد ذلك، فأصبحت أحرص على جمع بطاقات الفنادق، والبطاقات البريدية من كل مدينة أو قرية أزورها حتى إذا أردت الرجوع إليها مرة أخرى استطعت الوصول إليها بسهولة.

وكان من دروس هذا الحب الضائع أيضاً أن حرصت على تسجيل الأوقات السعيدة التي أمارس فيها هوى الأمكنة بالصور وكل وسائل التوثيق الممكنة! وفعلت ذلك فيما بعد مع كل مكان زرته وأحببته على سطح الكرة الأرضية، وكان من أحدثها بالنسبة لي ذلك الكوبري الصغير المجاور لمتحف الفنان الهولندي العظيم رمبرانت في أمستردام، ففوق هذا الكوبري الصغير، الذي يصف عليه المقهى القريب مقاعده ومظلاته، أمضيت أجمل الأوقات بعد انتهاء زيارتي للمتحف، وسحرني المكان المطل على إحدى القنوات البحرية العديدة التي تخترق أمستردام، وسحرتني لوحة الزهور الملونة الجميلة التي تطل على المكان كله من أصص نوافذ البيوت المحيطة به وشرفاتها، فوعدت نفسي بالعودة إليه مرة أخرى، ومازلت أنتظر وفائي بالوعد في الصيف المقبل بإذن الله.. أما سلالم بعض شوارع روما الأثرية وميادينها التي يفترشها السياح والشباب من الجنسين في شمس الربيع الجميلة، فلقد أسفت لتأخر العمر عند اكتشافها لأول مرة قبل 12عاماً فقط وأسفت لأنني لم أتعرف بها وأنا في سن الشباب لكي أفترشها مثلهم متحرراً من كل القيود ومستمتعاً «بالفراغ السعيد» كما يستمتعون، وأما مقاعد مقهى جورج سانك في شارع الشانزليزيه،.ومقاعد مقهى ميدان سان ميشيل المطل على الفسقية، ومقاعد مقهى ساحة السوربون بالحي اللاتيني، فلقد نحلتها ونحلتني في كل زيارة لى إلى معشوقتي المدللة باريس، وفي كل مرة أذهب فيها إلى باريس أتذكر كلمة الشاعر الألماني العظيم «جوته» حين رآها لأول مرة فهتف مبهوراً: أخيراً آن لي أن أولد! ولا غرابة فيما قال جوته ولا عجب، فالإنسان قد يولد من جديد بالفعل في «المكان» الذي يحبه، كما يولد المرء مرة أخرى أيضا حين يقع في هوى من يحب، ولقد وقعت في هوى مكان جديد في

الفترة الأخيرة وأضفته إلى قائمة «معشوقاتي» اللاتي أتعذب بالحنين إليهن وأعد نفسي باستمرار الوصال معهن!

ومعشوقتي الجديدة هي مدينة الأقصر الأثرية الجميلة النظيفة، التي تضارع أجمل مدن أوروبا في نظافتها وجمالها وخضرتها، وتفوقها جميعا بكنوزها الأثرية، التي لم تبح حتى الآن إلا بأقل القليل من أسرارها.

فقد زرتها منذ عامين لأول مرة بعد أكثر من 33 عاما من آخر زيارة لها، واكتشفت أن المدينة التي زرتها في الستينيات قد اختفت من الوجود، وحلت محلها خلال السنوات العشر الأخيرة مدينة أخرى «أوروبية» تفوح بعبق التاريخ والحضارة القديمة والسحر الغامض.

ومن ذكرياتي التي لا أنساها عند زيارتي الأولى للأقصر، أنني قد جئت إليها بالقطار من أسوان وليس من القاهرة لإعداد تحقيق صحفي نسيت الآن كل شيء عنه، لكني لم أنس أنه كان من ترتيبات إعداد هذا التحقيق أن ينتظرني في محطة الأقصر مندوب عن رئيس مجلس المدينة في موعد وصول القطار في الليل ليصطحبني إلى الاستراحة الحكومية التي سأبيت فيها ليلتي، ثم أبدأ لقاءاتي مع المسؤولين عن المدينة في صباح اليوم التالي.. لكني وصلت إلى محطة الأقصر فلم أجد أحداً في انتظاري.. وتلفت حولي أبحث عمن يستطيع إرشادي إلى طريق الاستراحة فلم أجد معيناً، فركبت حانطوراً وطلبت من صاحبه أن يتوجه بي إلى أكبر فنادق المدينة، وهو حينذاك فندق «ونتر بالاس» أو قصر الشتاء بالعربية الذي كثيراً ما قرأت عن ملوك العالم ورؤساء الدول الذين يقيمون فيه عند زيارتهم للأقصر، ووصلت إليه بسلام وحجزت لنفسي غرفة فيه، وسألت موظف الاستقبال متوجساً عن أجرها.. فإذا به خمسة جنيهات وخمسة قروش فقط لاغير بأسعار ذلك الزمان السعيد، وبالرغم من أنه من فنادق «الخمسة نجوم».. وأمضيت ليلتي في الفندق العريق مبتهجاً بالمكان.. ومتخيلاً صور الشخصيات العالمية التي سبقتني في الإقامة به، وفي الصباح توجهت إلى مجلس المدينة واستقبلني رئيس المجلس مرحباً ومتسائلاً عن سبب عدم حضوري في الموعد الذي حددته له ليلة أمس، وأجبته بأنني قد حضرت في الموعد لكني لم أجد أحداً في استقبالي. وتعجب الرجل لذلك، واستدعى الموظف الذي كلفه بانتظاري فجاء رجل طيب من أهل المدينة، وأكد لرئيسه أنه كان في انتظاري على الرصيف ودخل عربة الدرجة الأولى، وتفقد دواوينها واحداً بعد الآخر سائلاً عن مندوب الأهرام.. فلم يجبه أحد، وإمعاناً في أداء واجبه فقد وجد في أحد الدواوين راكباً مستغرقاً في النوم توسم فيه من هيئته أنه قد يكون مندوب الأهرام المنتظر، فهزه برفق في البداية، ثم بعنف بعد ذلك حتى استيقظ منزعجاً، وما أن فتح الرجل عينيه حتى بادره بالسؤال: هل أنت مندوب الأهرام؟

فنظر إليه الرجل للحظة منزعجاً، ثم أغمض عينيه مرة أخرى وهو يقول له: لا.. أنا مندوب المقطم! ثم رجع إلى سباته من جديد!

وضحك رئيس المدينة كثيرا، وشاركته الضحك والتعجب.. لأن الموظف الطيب لم يتنبه إلى أن الرجل كان يداعبه أو يسخر منه احتجاجاً على إيقاظه من نومه، واعتقد أنه بالفعل مندوب المقطم، مع أن جريدة المقطم لم يكن لها وجود في ذلك الوقت، وتوقفت عن الصدور قبل أكثر من ثلاثين سنة، وهكذا اعتقد الرجل أن مندوب الأهرام لم يجيء.. وجاء بدلاً منه مندوب المقطم.. ولأنه ليست لديه تعليمات باستقباله فقد انصرف عنه وعن المحطة كلها مطمئناً إلى أنه قد أدى واجبه على خير ما يرام!

ودفعت أنا ثمن خفة دم الراكب المصري وسرعة بديهته حتى وهو شبه نائم - من حيرتي على رصيف المحطة، وتخبطي في البحث عن مأوى لي في المدينة الأثرية.

فيا لوعة من يكابد عشق الأمكنة مثلي، ويجد نفسه مقيداً بعشرات القيود التي تحول بينه وبين ممارسة عشقه كما يهوى ويرغب، ويا لسعادة من تتيح له ظروفه وإمكاناته أن «يلهو فوق سطح الكرة الأرضية» كما يشاء وكما كان يفعل سيد الرحيمي في رواية «الطريق» لنجيب محفوظ.. ولقد حدثتك عن بعض الأمكنة التي عشقتها، وأرغب في العودة إليها مرة أخرى، ولم أحدثك بعد عن الوقوع في هوى الكعبة المشرفة، أو هوى الرحاب الطاهرة في جوار الحرم النبوى بالمدينة المنورة، فما أضيق العمر عن أن يتسع لكل ما يرغب الإنسان في أن يرجع إليه أو يفعله.

وما أضيق العيش لولا فسحة الخيال، وراحة استرجاع ذكريات الأماكن الجميلة والأشخاص المحبوبين إلى مخيلة الإنسان ومعايشتها أو معايشتهم للحظات قصيرة يسرقها من العمر وتخفف عنه من حين لآخر.. جفاف الحياة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قتلتني يامو لاي!

ألم تصادف ذات مرة بائعاً للكتب القديمة يفترش الأرض في أحد الميادين، وينتقل بكتبه ومجلاته من مكان لآخر، حسب الأحوال، ويدور عمره الآن بين السبعين والثمانين، وفي وجهه «شامة» فوق عينه اليسرى؟!..

إذا رأيت هذا الرجل.. أرجو أن تتصل بي وتدلني على موقعه الحالي.. ولك مني إلى جانب الشكر مكافأة ثمينة!

أما لماذا أبحث عنه؟!.. فلذلك قصة عمرها حوالي 25 عاماً.. فالحكاية هي أنني من هواة الكتب القديمة، وأسعد أوقاتي حين أصادف رجلاً يفترش الرصيف، ويضع أمامه مجموعة من الكتب والمجلات المستعملة.. فإذا صادفته فلسوف أنسى غالباً ما أنا ذاهب إليه من عمل أو ارتباط، وسوف أنزل من السيارة لكي أتفحص بضاعته من الكتب باهتمام شديد، ويمضي الوقت وأنا مستغرق في تقليب صفحات الكتاب ونفض التراب عنها، ثم أختار مجموعة كبيرة منها وأنقد البائع ثمنها، وأرجع سعيداً بما اشتريت، ومتلهفاً على الاستمتاع بقراءتها.

وقد لازمتني هذه الهواية معظم سنوات عمري.. وتمرست - بطول الخبرة - على اكتشاف جواهر الكتب المدفونة في تراب الأرصفة وأكوام المجلات القديمة، وعدلت منذ 25 عاماً عن عادتي السابقة في الجدال مع باعتها حول أثمانها ومحاولة تخفيضها كما كنت أفعل في جاهليتي الأولى!.. وتعلمت مع الزمن أن الكتاب الذي تشعر بحاجتك إلى قراءته والاستفادة منه لا يغلو ثمنه على من يريد الاستمتاع به.. مهما يبلغ هذا الثمن. كما تعلمت أيضاً من ذلك البائع صاحب الشامة فوق عينه اليسرى أن من يحرص على الكسب قد يفقد كل شيء أحياناً كما جاء في النشيد الأول من جحيم «دانتي» في «الكوميديا الإلهية».. فكففت عن الملاحاة والمساومة في أثمان الكتب القديمة وأصبحت منذ ذلك الحين أقبل بما يطلبه بائع الكتب.. مهما يشتط في التقدير.

ففي ذات يوم منذ 25 عاماً رأيت هذا البائع يجلس على الرصيف، وأمامه مجموعة صغيرة من الكتب القديمة لا يزيد عددها على 25 أو 30 كتاباً.. فتوقفت أمامه كعادتي، وتفحصت كتبه، واخترت مجموعة منها تبلغ 17 أو 18 كتاباً.. وبدأت عملية المساومة بيني وبينه حول ثمنها، فطلب مبلغاً كبيراً.. وعرضت مبلغاً صغيراً.. وراح كل منا يستخدم ذكاءه وشطارته في إقناع الآخر بما يريد.. إلى أن توصلنا في النهاية إلى حل وسط، رضي عنه البائع وقبلت به.. فنقدته المبلغ الذي اتفقنا عليه، وهممت بحمل الكتب.. فوجدتها ثقيلة.. وسيارتي بعيدة.. فأعدت إليه «رصة» الكتب وطلبت منه انتظاري إلى أن أرجع إليه بالسيارة.. وتوجهت إلى حيث تركتها، وأدرت محركها بعد شيء من العناء، ودرت بها حول الميدان الكبير لأمر بالبائع في موقعه.. فما إن وصلت إليه حتى وجدت الرجل قد تبخر.. والكتب والمجلات قد اختفت!

وسألت الباعة المجاورين عنه فقالوا لي إنه رجل غريب جاء إلى هذا المكان اليوم فقط.. وقد حمل كتبه ومجلاتـه وانصرف منذ قليل!

فضحكت من نفسي ومن غفلتي.. وضحكت أكثر من «شطارتي» لإنقاص الثمن، «وبلاغتي» الخائبة في إقناعه بتخفيضه.. وأدركت عن حق أن من يغالي في الحرص على الكسب قد يفقد بالفعل كل شيء!

وكففت منذ ذلك الحين عن مجادلة أي بائع للكتب القديمة فيما يطلبه ثمناً لها.. وتعجبت من أننا لا نساوم أي بائع غالباً في ثمن بضاعته إلا بائع الفكر والعلم والثقافة.. مع هوان أسعارها إذا قيست بأسعار السلع المادية الأخرى!.. وتذكرت دائماً عبارة الشاعر الأديب جبران خليل جبران: ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب! واعتبرت كل كتاب قيم ومفيد ويثري الفكر والوجدان مكتوباً بدم القلب، ولا تجوز المساومة في ثمنه.. وأصبحت أقف كالمتبتل أمام رفوف الكتب في المكتبات.. أو على الأرصفة!

ومنذ أيام كنت عائداً إلى البيت أشعر بالجوع والعطش والإجهاد.. بعد يوم شاق في العمل.. فإذا بي أكتشف «كنزاً» جديداً على رصيف أحد الشوارع في طريق العودة.. وإذا بي أتوقف أمامه وأنسى الجوع والإجهاد، وأستغرق في تفحص الكتب وتقليبها.. وجاءني البائع الشاب فرحب بي بحفاوة لفتت نظري.. فسألته: هل تعرفني؟ فأجابني هو بسؤال مماثل: هل نسيتني؟!

لقد كنت زبونا لي حين كنت «أفرش» في الميدان الآخر.. وقد انتقلت لموقعي هذا منذ 5 سنوات بعد أن طاردتني شرطة المرافق،. ومنذ ذلك اليوم لم أرك وحاولت الاتصال بك تليفونياً في مكتبك لأبلغك بموقعي الجديد، فحالت بيني وبينك سكرتيرتك!.

فاعتذرت له بأسف عن سوء تقدير زملاء العمل الذين لا يقدرون باعة الجواهر حق قدرهم!.. واشتريت منه مجموعة ثمينة من الكتب القديمة.. وسعدت بعثوري بينها على كتاب ثمين قرأته منذ حوالي ثلاثين عاماً.. واختفى فيما اختفى من كتب خلال رحلة العمر!.. وهو كتاب «حياة طبيب» لرائد طب الولادة وأمراض النساء في مصر الدكتور نجيب محفوظ باشا.. وتذكرت من جديد أنه كان أول طبيب مصري تخصص في طب النساء في مصر، وأنه جاءت على يديه أجيال وأجيال من المواليد منذ أوائل هذا القرن وحتى ما بعد منتصفه.. وأنه كان من بين من سحبهم من أرحام أمهاتهم - أديب مصر العظيم.. نجيب محفوظ.. فسماه والده باسم الطبيب المسيحي البشوش الذي أشرف على ولادته.

وتوقفت خلال إعادة قراءتي للكتاب أمام مواقف عديدة في حياة هذا الطبيب المصرى العظيم.. ولاحظت أنني قد تأثرت بنفس المواقف التي تأثرت بها فيه حين قرأته لأول مرة! ومنها قصة هذه المريضة الفقيرة من قنا التي أصيبت بناسور بولي عقب الولادة، وعجز أطباء قنا عن علاجها، ونصحوها بالسفر إلى القاهرة والتوجه لمستشفى قصر العيني لكي يعالجها طبيب اسمه «نجيب محفوظ» له خبرة بجراحات الناسور البولي فبدأت الرحلة إلى القاهرة على الأقدام.. تستجدي

طعامها من الناس في الطريق، وتبيت في أي مكان.. إلى أن بلغت مستشفى قصر العينى بعد 4 شهور من بداية الرحلة وسألت البواب عن «نجيب محفوظ» فإذا به يقول لها إنه سيسافر للخارج غداً.. فراحت تندب حظها وتبكي وتولول.. إلى أن أغمي عليها.. وسمع الطبيب الإنسان صوتها وهو جالس في حديقة المستشفى مع عدد من زملائه يتحدثون عن رحلته التي سيبدأها غداً وحجز تذاكر الباخرة لها.. ورتبت مواعيدها شركة كوك للسياحة.. فأمر نجيب محفوظ بإدخالها المستشفى.. وقرر تأجيل سفره أسبوعين، ورفض نصيحة زميل له أن يدعها في المستشفى تأكل وتشرب إلى أن يرجع من سياحته!.. وأجرى لها الجراحة، وراح يمر عليها كل يوم ليتابع حالتها.. إلى أن مر بالعنبر الذي تقيم به في اليوم الأخير قبل سفره فسمعها تسأل الحكيمات عن الطبيب الكبير الذي أجرى لها الجراحة لكي تشكره، وتعجبت كثيراً حين عرفت أنه هو نفسه هذا الطبيب الشاب الذي يمر بها كل يوم، ويتابع حالتها بعطف واهتمام! فما إن اقترب منها حتى سألته عن اسمه.. فأجاب: نجيب، وعن اسم أمه.. فأجاب: مريم.

فقالت له :روح يانجيب يا ابن مريم ربنا يكافئك عني.. ويجعل في وجهك جوهرة وفي فمك سكرة!

فيَسرُّ هذا الدعاء الصادق النابع من القلب الطبيب الشاب، ويتأثر به، فتغرورق عيناه بالدمع، ويكتب في مذكراته: «.. فحرصت طول حياتي على أن يكون وجهي طلقا ولساني حلواً في مخاطبة الناس.. تحقيقاً لدعاء هذه السيدة المسكينة».

وتوقفت في كتاب آخر اشتريته من نفس البائع أمام هذه الكلمات الجميلة لشاعر الهند العظيم.. طاغور: «الحب هو المرفأ الذي ينبغي أن تتجه إليه سفينة الحياة لكي يقودها إلى السرور.. الذي هو غاية الحياة وأصل الأشياء. ولا خير في حياة تقوم على الأثرة والأنانية، واستغلال الإنسان للإنسان في أغراضه.. كالآلة الصماء!».

كما توقفت أيضاً في كتاب ثالث أمام حيرة المعز لدين الله الفاطمي فيمن يستخلفه على المغرب، لكي يمضي إلى مصر التي فتحها له قائده جوهر الصقلي ويجعل منها قاعدة ملكه. فلقد تردد بين رجلين.. أحدهما: جعفر بن علي الأندلسي، والآخر: يوسف بلكين سيد قبيلة صنهاجة من البربر. وكان مع المعز عمه وهما يتداولان في ذلك... فقال المعز له إنه سيختبر دخيلة كل منهما، ويختار الأصلح منهما. ثم دعا إليه «جعفر»، وعرض عليه الأمر فاشترط عليه ألا يسأله عن شيء من الأموال التي يجبيها.. «لأن ما أجبيه يكون إزاء ما أنفقه.. وإذا أردت أمراً فعلته دون انتظار ورود أمرك فيه لبعد المسافة بين مصر والمغرب.. ويكون لي تقليد القضاء والخراج وغيره».

فاستاء المعز لما طلبه وقال له: عزلتني عن ملكي.. وأردت أن تجعل لي شريكاً في أمري.. واستبددت بالأموال والأعمال دوني؟!.. قم فقد أخطأت حظك؟!

ثم دعا إليه «يوسف بلكين» وعرض عليه نفس الأمر.. فاستعظمه واضطرب له وقال: «يامولانا.. أنت وآباؤك من ولد رسول اللـ ﷺ.. لم يصف لكم المغرب..

فكيف يصفو لي أنا الصنهاجي البربري؟!.. قتلتني يامولانا بغير سيف ولا رمح»..

فراح المعز يقنعة بقبول ما يعرضه ويهونه عليه.. حتى أجابه إلى مطلبه.. بشرط أن يولى المعز القضاء والخراج من يثق فيهم.. ويكون هو بينهم كالخادم بين أيديهم!

فاستحسن المعز قوله.. وشكره.. وبعد انصرافه سأله عمه: أتثق بوفائه بما قال؟!.. فأجابه المعز في حكمة: إن ماطلبه «جعفر» في البداية هو آخر ما ينتهي إليه يوسف ».. ولو طالت المدة بجعفر فسينفرد بالأمر.. أما لو طالت بيوسف فلسوف ينتهي إلى مابدأ به «جعفر!» وأقامه على المغرب..

وتذكرت من جديد حكاية «من يحرص على الكسب يفقد كل شيء»!.. وتذكرت البائع الذي اغتصبني كتبي الثمينة بعد أن أجهدت نفسي في اختيارها.. وفي المساومة على ثمنها.. وتطلعت لقراءتها والاستفادة بكنوزها!

ألم تر حقاً بائع كتب قديمة له «شامة» فوق عينه اليسرى لكي أسترد منه كتبي المفقودة.. وأدفع له من جديد أضعاف أضعاف. ثمنها؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخيراً.. أصبح حراً

دعني أحدثك هذه المرة على سجيتي، وبغير تحفظ أو تدبير.

ففي أوقات الضيق تشتد حاجة الإنسان إلى الفضفضة.. والإفضاء.. وتضعف قدراته على التجمل والادعاء.

وأنا أعترف لك بأنني في حالة ضعف نفسي ووجداني هذه الأيام، وحين يضعف الجسم تضعف مقاومته للأمراض.. وحين تضعف النفس يسهل غزوها بالأحزان.

وما يجري حولنا لا يبعث في النفس إلا المرارة.. والاكتئاب.. فإن لم يكن الأمر كذلك فبماذا أستطيع أن أصف حالي.. وأنا لا أجلس ذات مرة أمام التليفزيون إلا وتطالعني مشاهد وداع الشهداء من الفتية الصغار في الأرض المحتلة، ولا أدير زرار الراديو إلا وأسمع نواح أهلهم.. وزئير مودعيهم ونشيدهم الجنائزي الحزين.. ولا أمسك صحيفة إلا وأقرأ عن شهداء جدد ينضمون إلى قائمة الأحياء عند ربهم يرزقون.

وكيف يحبس المرء دمعه وهو يرى صبية صغاراً في العاشرة والثانية عشرة من عمرهم محمولين فوق المحفات، ملفوفين بعلم بلادهم ووجوههم مكشوفة.. وساكنة سكون الموت الأبدي.

وقد كانت منذ قليل تضج بالغضب.. والإصرار والأمل في حياة أفضل؟.

وماذا يملك المرء أن يفعل وهو يرى الرجال يودعون شهيداً جديداً يزفونه إلى مثواه الأخير بهتاف جماعي يمزق القلب يقول:

ياشهيد ارتاح ارتاح

بكره طالع له صباح

وأليس من نكد الدنيا ألا يكون لأمثال هؤلاء الفتية والغلمان الصغار أمل في الراحة إلا في الموت وانطواء صفحة العمر القصير؟

وألا يذكرنا ذلك بنشيد الزنوج الأمريكيين في عهد الرق حين يموت أحدهم فيتخلص من ذل العبودية وهوان الرق وعسف السادة غلاظ القلوب الذين لا يتعاملون معه إلا بالسوط.. وبدلاً من أن يبكيه رفاقه ويولولوا حزناً على فراقه كانوا يودعونه إلى مثواه الأخير وهم يرقصون ويغنون مبتهجين وقائلين:

أخيراً.. أصبح حراً!

لأنه بالفعل قد أصبح حراً بعد عبوديته في الأرض وتحرر من الذل والقسوة والوحشية التي كان يكابدها في الدنيا.. نعم هم أحياء عند ربهم يرزقون، لاشك في ذلك ولا مراء.. لكن القلب حزين، والنفس مثقلة بما ترى وتسمع كل يوم، واللسان عاجز عن أن يعبر عن كل مافي الصدر من غضب وضيق ومرارة.

ولست أعرف من الذي أشار على أهالي الشهداء في الأرض المحتلة بأن يكشفوا عن وجوههم خلال وداعهم الأخير.. ولاهل جاء ذلك عفواً أم كان تدبيراً مقصوداً، لكي تظل ذكراهم حية دائماً في القلوب، وتؤجج لهيب الغضب في الصدور، وتطالب الآخرين بالثأر لهم.. لكننا نعرف أن الشهداء لا تتخذ معهم الإجراءات الحزينة المعتادة التي تتخذ مع غيرهم ممن يلقون المصير حتف أنوفهم، ونعرف أنهم يوارون الثرى بدمائهم وملابسهم، وحيث لقوا مصارعهم، كما أمر الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بدفن شهداء بدر، لأنهم في الجنة منذ صعدت أرواحهم الطاهرة إلى الرفيق الأعلى، وليسوا في حاجة لما يتبع مع غيرهم من الراحلين.. فمن أين إذن جاءت فكرة كشف الوجوه خلال الوداع الحزين.. التي أوجعت قلوبنا.. وأرقت ضمائرنا وأفقدتنا الرغبة في الأشياء.. وحتام سنشاهد هذه المشاهد الموجعة الحزينة؟

في شبابنا كنا نحفظ نشيداً كان يردده اليساريون في محاكماتهم يقول مطلعه:

اشـــــتـدي أزمـة تنفرجي

قد آذن صبحك بالبلج

أي بالبزوغ والانبلاج..

فهل آن لهذا الليل الطويل أن ينقضي.. وينبلج الصباح حاملاً معه العدل والكرامة والأمان للمضطهدين والمستضعفين في الأرض؟

وهل كانت تشعر بذلك تلك الأم الفلسطينية التي رأيتها على شاشة التليفزيون تحمل صورة ابنها الشهيد الذي لم يتجاوز ياحسرة القلب - السابعة عشرة من عمره.. وتزغرد «فرحاً» باستشهاده زغرودة كالولولة الحزينة أوجعت القلب بأكثر مما تفعل الولولة والنحيب؟

ولماذا شعرت باكتئاب الدنيا كلها وأنا أرى هذه الأم الثكلى وهي تتعالى على أحزانها.. وتتجلد عند استشهاد ابنها؟!

ولماذا تذكرت في تلك اللحظة عبارة التعزية الشعبية الشائعة في ربوع الشام حين يريد أحدهم أن يخفف عن أب ثاكل أحزانه على فقد ابن، فيقول له مصبراً: إن من أخذه من أمامه قادر على أن يأخذه أيضاً من قلبه!

بمعنى أنه يدعو له بنسيان من فقده... لكي يتخفف من آلامه.. فهل «ينسى» الأب الثاكل والأم الثكلى حقاً ثمرة القلب الحزين حين يغيب عن الحياة؟!

إن أعزاءنا لا يموتون حين يرحلون عنا.. وإنما يموتون حقاً حين ننساهم، ونحن لا ننساهم، وإنما نسترجع صورهم ونتحدث إليهم ونعاتبهم على غيابهم عنا.. ونرجو لهم السعادة في عالمهم الأفضل ونشعر بوجودهم معنا وحولنا كل حين.. فكيف «يؤخذون» من القلب إذن بعد أن أخذوا من الحياة، وقلوبنا هي متاحفهم وسجلات ذكرياتهم.. ومستقرهم إلى يوم يبعثون.

حين كنت في السويد، أحضر احتفالات توزيع جوائز نوبل، جمعتني مائدة العشاء مع صحفى ألماني، ودار بيننا حديث السياسة الذي لا مفر منه في مثل هذه المناسبات.. وتطرق بنا الحديث إلى القضية الفلسطينية، فقال لي الصحفي الألماني إن الطرف الآخر في الصراع مدجج بالسلاح حتى قمة الرأس، وبالتفوق التكنولوجي والدعم الأمريكي وميزان القوة لصالحه الآن وفي المدى القريب.. فكيف ستستردون الأرض الفلسطينية إذن من أنيابه؟ وماذا يملك الفلسطينيون أن يفعلوا إذا رفضوا شروط الإسرائيليين وسلامهم المنقوص الذي يريدون فرضه عليهم؟

فأجبته بأنهم يملكون مالا يملكه الطرف الآخر في الصراع وهو المقاومة والرفض إلى آخر نفس.. وتقديم الشهداء طلباً للحق والعدل إلى مالا نهاية، ورويت له قصة ندوة سياسية شهدتها قبل سنوات، ضمت كُتاباً غربيين وعرباً.. وتوجه خلالها أحد الكتاب الغربيين بنفس هذا السؤال لسيدة فلسطينية شابة، وسألها بتحد: بأي شيء ستحاربين لكي تنالوا مطالبكم من الطرف الآخر؟

فأجابته في هدوء: ببطني!

وقبل أن يفيق الحاضرون من ذهولهم لهذه الإجابة غير المتوقعة كانت قد شرحتها لهم، فقالت إنها سوف تتزوج وتنجب سبعة أبناء لاتريد منهم سوى اثنين فقط، أما الخمسة الباقون فسوف تهبهم للقضية.. ولن تحزن حين يستشهدون الواحد بعد الآخر.. وبذلك لن تموت القضية.. ولن يضيع الحق مهما يطل الظلم!

وأحسب أن هذا هو ما يجري الآن بالفعل في الأرض المحتلة، وسوف يتواصل إلى أن يتحقق العدل.. وتسترد الحقوق.. فـ «بقية السيف أنمى عددا» كما قال ذات يوم الإمام علي بن أبي طالب.. بمعنى أن من بقوا على قيد الحياة ونجوا من الاستشهاد بالسيف سوف يواصلون الجهاد، وسوف تتزايد أعدادهم على مر السنين إلى أن يدحروا الظلم، وينشروا العدل في الأرض.

ألم يكن هذا ما فعله شهداء غزوة «مؤتة» الثلاثة حين التقى المسلمون وهم ثلاثة آلاف رجل، بجيش هرقل العظيم وهو مائة أو مائتا ألف؟

ألم يحمل زيد بن حارثة راية النبي فاندفع بها في صدر العدو وهو موقن أن ليس من موته مفر، فإذا مزقته الرماح تناول الراية من بعده جعفر بن أبي طالب وهو شاب في الثالثة والثلاثين واندفع في القوم، فلما قُطعت يمينه أخذ الراية بشماله، فلما قطعت اليسرى ضم عضديه على الراية حتى قُتِل وأخذ منه ابن رواحة الراية وقاتل بها حتى استشهد، ثم حملها من بعدهم خالد بن الوليد.

وأليس هذا هو ما تفعله الأجيال المتتالية من أطفال الحجارة جيلاً بعد جيل!

فإذا كانت العين تدمع في وداع شهداء اليوم.. فلقد بكى الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه شهداء مؤتة وكان حزنه على زيد وجعفر أعظم، وأجاب من سأله معاتباً حين رأى دمعه: أليسوا في الجنة؟

_ بلى.. لكنها عبراتٍ الصديق على الصديقٍ!

وهل يصبح غريبا بعد ذلك أن نرى أطفالا في الخامسة والسادسة من أعمارهم يقذفون الحجارة على جنود مدججين بالسلاح ويعرضون حياتهم للخطر، ومن هو الشجاع في هذا المشهد الغريب.. الطفل الذي يخرج إلى الشارع وهو يعرف أن الموت قد يحصده في أية لحظة.. أم الجندي الأشوس الذي يرتدي قميصاً واقياً من الرصاص.. ولا يتردد لحظة في أن يرد على «حجر» هذا الطفل بالذخيرة الحية؟

وفي أي عُرف ودين يكون الرد على القذف بالحجارة.. بالرصاص الحي وبالتصويب في مقتل من الرأس والقلب؟!

ومن يكون إذن مجرم الحرب الذي لا تسقط جريمته بمضي المدة إن لم يكن مثل هذا الجندي الجبان المتعصب تعصباً عرقياً أعمى.. وآمِره بالضرب المباشر وحكامه ومحرضوه؟

إنني لا أحب الكتابة في السياسة ولا أفضل خوض غمارها، إيماناً مني بأن لكل ميدان رجاله.. ولأنني أيضاً قد عاهدت نفسي منذ أمسكت بالقلم ألا أكتب كلمة لا أؤمن بصدقها حتى ولو تبين لي فيما بعد خطأ اعتقادي.. فالمهم هو أنني لم أكتبها حين كتبتها إلا وأنا مؤمن بها، لكن نهر الدم الذي يجري أمام العين، والمشاهد الكئيبة التي تحيط بنا من كل جانب قد فرضت عليّ أن أكتب هذه الكلمات العاجزة.. وشعرت بأنني لن أكون صادقاً مع نفسي إذا راغمت قلمي على أن يكتب في أي موضوع آخر هذا الشهر..

فعفواً لما أثقلت عليك به.. وسلاماً على الشهداء في مستقرهم الأمين.

وأملاً ودعاءً ألا يضيع دمهم الطاهر هدراً..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غرباء.. في الليل!

الغرباء.. غرباء في الليل والنهار معاً.. لكن إحساسهم بالغربة يتعمق لديهم في الليل أكثر.. أما في النهار فقد يخفف منه انشغالهم بعملهم وصراعهم مع الحياة. ثم تغرب الشمس وراء الأفق ويسدل الظلام أستاره على الكون

وتؤوي البيوت الدافئة أصحابها، ويبقى الغرباء وحدهم في الشارع أو في المساكن الخالية يبحثون في الليل عن أنيس لوحدتهم، أو سمير يبدد وحشتهم فيزدادون إحساساً بالغربة والوحدة والانكسار!.

ولأن الغربة الحقيقية لا تقتصر على غربة المكان وحدها، وإنما تمتد إلى غربة النفس أيضاً في حياة لا تجد فيها دفئها المعنوي والعاطفي، فإن الغرباء في الحياة كثيرون ولو كانوا يعيشون في أوطانهم، وربما لهذا السبب بالذات لم تؤثر أغنية عاطفية في نفوس البشر على اختلاف جنسياتهم كما أثرت أغنية فرانك سيناترا الشهيرة التي غناها بصوته الدافئ الحنون في الستينيات: غرباء في الليل!. وهي الأغنية التي يقول فيها: الغرباء في الليل يتجولون.. يتبادلون النظرات.. يبحثون عن الحب الحقيقي، قبل انتهاء الليل!. ويختتمها بإعلان أن: الوقوع في الحب مناسب.. للغرباء في الليل!.

ولم تحظ أغنية مثلها ببعض ما حظيت به من شهرة في الغرب وفيما وراء المحيطات.

وحين انطوت حياة هذا الفنان العظيم، قفزت هذه الأغنية بالذات إلى ذاكرة كثيرين، واستعادوا نغماتها الحزينة وكلماتها المؤثرة، وكنت حين أعلن خبر رحيله عن الحياة في باريس، ففوجئت بصورة سيناترا تغطي شاشات كل محطات التليفزيون العالمية، وأغنيته الشهيرة تتردد في خلفية شاشة التليفزيون خلال إذاعة أنباء الرحيل والتغطية الإخبارية لقصة حياته. وسرحت وأنا أجلس في شقة صغيرة بأطراف باريس أتابع حوارات المذيعين مع رفاق رحلة حياة النجم الشهير، وتذكرت كيف فتنت وأنا في مرحلة الشباب بأفلامه وأغانيه وكيف استمعت لأغنيته الشهيرة هذه لأول مرة في خريف عام 1966 من البرنامج الأوروبي بإذاعة القاهرة وأنا مستلق في فراشي بشقتي الصغيرة التي كنت أعيش فيها وحيداً في ذلك الوقت، وكيف صادفتني هذه الأغنية في مساء أحد أيام الجمعة التي كنت أمضيها وحيداً غالباً في مسكني ويزداد خلالها إحساسي بالوحدة والانقطاع عن الأهل والأحباء، فمست وتراً حساساً في نفسي، ودمعت لها عيني، وكيف أحببت هذه الأغنية الحزينة ورحت أترصدها كل حين في البرنامج الأوروبي، إلى أن حصلت على الألبوم الذي يتضمنها فيما بعد وأصبحت واحدة من أغنياتي المفضلة التي تذكرني بمرحلة الشباب وأحلامها الموءودة وعذاباتها الصغيرة، إلى جوار أغاني عبد الحليم حافظ، وأغاني محبوبي القديم عبد الوهاب، ولم يكن ذلك غريباً.. إذ لم تعرف السينما الأمريكية والغناء الغربي قبل سيناترا

مطربا أثار تأوهات الفتيات الصغيرات خلال غنائه وإعجاب الشباب بصوته العاطفي الدافئ العميق، كما فعل فرانك سيناترا.

فهو المؤرخ العاطفي الأشهر لشباب الخمسينيات والستينيات في أمريكا والغرب كما كان عبد الحليم حافظ مؤرخنا العاطفي الخاص في هذه المرحلة من العمر، ولم تكن رائعته التي مازالت حية ومسموعة حتى الآن.. غرباء في الليل.. هي درته اليتيمة، فلقد سبقتها وتلتها أغنيات عديدة نالت إعجاب المستمعين وحبهم منها: «حاول شيئا من الرقة»، «إني أحتفظ بك تحت جلدي»، و «طريق» وغيرها.

ولم يكن نجاحه كممثل رائع بأقل من نجاحه كمطرب عاطفي جميل، كما لم يكن طريقه أيضاً إلى الشهرة والنجاح والنجومية خالياً من المعاناة والآلام، بالرغم مما حققه من نجاح أسطوري استمتع به حتى اللحظة الأخيرة من حياته.

فلقد ولد «فرانكي ألبرت سيناترا» في مدينة هويكن بولاية نيوجيرسي لأب مهاجر من إيطاليا يعمل رجل مطافئ، وبدأ حياته العملية صبياً في مطبعة الجريدة المحلية بمدينته يطبع التجارب الصحفية، ويخرج في المساء ليلتقي برفاقه من أبناء المهاجرين الإيطاليين في الحانات الرخيصة، حيث يستخفه الطرب أحياناً فيغني ويعجب الرفاق بصوته، فيبدأ محاولاته لتشكيل فرقة صغيرة من الهواة رغم معارضة أبيه لاتجاهه للغناء الذي يعده حرفة المتشردين، لكن الفتى الإيطالي يواصل طريقه ويجذب صوته أسماع رواد الحانات الصغيرة التي يغني فيها مع رفاقه وتفوز فرقته بجائزة للهواة ويجد بعد ذلك فرصة ذهبية للانضمام للباند الشهير وقتها.. فرقة هاري جيمس الموسيقية، ويصبح أحد مطربي الكورس فيها، ثم يبدأ طريقه كمطرب منفرد بالغناء لمدة 8 أسابيع على مسرح بارامونت بنيويورك يحقق خلالها أول نجاح حقيقي له ويفوز بلقب جماهيري بديع هو حبيب أمريكا!.

وتنتشر أغانيه العاطفية ويشارك في بطولات الأفلام السينمائية، ثم تشهد حياته محنة شخصية مؤلمة كادت تقضي عليه وهو في بداية طريق النجاح والصعود في أوائل الخمسينيات، فلقد فشل زواجه بحبيبته الأولى وأصيب بمرض في أحباله الصوتية، توقف بعده عن الغناء وبدا المستقبل أمامه مظلماً وكئيباً، وألغى وكيله الفني عقده معه باعتباره قد انتهى كمطرب، لكن سيناترا لم يستسلم لليأس وقاتل حتى شُفيَ من مرضه، وسعى للحصول على دور صغير في فيلم اسمه «من الآن وإلى الأبد» لم يكن ليقبل به قبل محنته الصحية والنفسية، ورضي بالأجر الصغير الذي عرض عليه مقابل القيام به، وأدى الدور بكل ما تركته المحنة على نفسه من آثار وبصمات، فإذا به يفوز عن هذا الدور الصغير الذي عاب عليه أصدقاؤه قبوله بجائزة الأوسكار كأحسن ممثل مساعد، وإذا بهذا الدور يعيده إلى بؤرة اهتمام المنتجين من جديد، فيؤدي بعده أدوار البطولة في عدة أفلام جديدة، ويفوز بجائزة الأوسكار كأحسن ممثل عن فيلم «الرجل ذو الذراع الذهبية»، ويتألق بالنجاح والشهرة والثراء، ويسيطر بصوته العاطفي الدافىء على وجدان الشباب الأمريكي في الخمسينيات والستينيات حتى ليكتب أحد مؤرخي الفن فيقول: إن

أمريكا قد مر بها وقت كان فيه كل حبيبين يلتقيان في المساء يهيمان معا مع أنغام موسيقى أغنية من أغنيات سيناترا!.

وواصل سيناترا رحلة الصعود إلى المجد وحظي بما لم يحظ به مطرب آخر من الشهرة والنفوذ والاحترام في بلده، وكان الصديق المقرب لمعظم رووٴساء أمريكا خلال الثلاثين عاماً الأخيرة وغنى في حفل عيد ميلاد جون كيندي بعد انتخابه رئيساً لأمريكا عام 1961، وكان الصديق المقرب للرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان وزوجته نانسي، ومنحه ريجان أعلى وسام يمنح لمواطن أمريكي وهو ميدالية الحرية عام 1990.

واعتزل الغناء فترة محدودة من عام 1970 إلى عام 1973 لكنه رجع إليه وظل يغني في الحفلات الخيرية لصالح الأطفال الفقراء، وكما شهدت بداية حياته محنة كادت تقضي عليه قبل الأوان تعرض لمحنة أخرى وهو في أوج شهرته عام 1976، حين قامت المباحث الفيدرالية الأمريكية بالتحري عن علاقته ببعض زعماء المافيا، وظهرت له في الصحف صورة تجمع بينه وبين بعضهم، وتردد الحديث عن أنهم قد ساعدوه في بداية حياته الفنية باعتباره أمريكياً من أصل إيطالي مثلهم.

لكن سيناترا صمد لكل الزوابع والأعاصير واكتفى حين سئل عن تعليقه عما يثار حوله بأن قال: نقائص العظماء هي عزاء التافهين الذين لم يحققوا نجاحا في حياتهم ويعوضون فشلهم برمي الناجحين بالاتهامات والقذائف!.

ومرت العاصفة من غير أن تنال الكثير من مكانة سيناترا لدى محبيه، وعاش حياته مستمتعاً بالشهرة والثراء والحب والحياة العائلية، وتزوج بأربع من أجمل النساء هن حبيبته الأولى نانسي بارباتو، ثم النجمة الفاتنة آفا جاردنر ثم النجمة الجميلة ميا فارو، ثم زوجته الرابعة والأخيرة التي لفظ أنفاسه الأخيرة وهي إلى جواره بربارا ماركس.

كما ارتبط خلال رحلة العمر بالنجمة الجميلة مارلين مونرو، وكان هو الذي عرفها بجون كيندي وشقيقه روبرت فارتبطت بكليهما فيما بعد بعلاقة عاطفية. لقد كانت حياته حافلة بالنجاح والثراء والحب والفن الراقي الجميل.

وبرحيله عن الدنيا انطوت صفحة حياة فنان رائع أمتع عشاق الغناء العاطفي بأجمل الأغنيات، واستدر أنهاراً من دموع العذارى في أنحاء الكرة الأرضية كلها.

فوداعاً لهذه القطعة الأخرى الجميلة من ذكريات الشباب.. وترى ماذا قد بقي الآن من رموزها ونجومها على قيد الحياة؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوميات الحزن.. والخوف.. والألم!

قرأت زوجته وهي في مدرستها خبر نقله مأموراً لمركز الشرطة في تلك المدينة من مدن جنوب مصرفي فترة احتدام المعركة بين الشرطة والجماعات الدينية، فانهارت وأحاطت بها زميلاتها وساعدنها على العودة إلى البيت، وحين رجع الزوج في موعده بكت وطلبت منه أن يستقيل من الشرطة وألا يذهب إلى الجنوب.

فلقد شاهدت في التليفزيون قبل أيام جنازة ضابط شرطة - اغتالته العناصر الإرهابية ورأت أباه يبكي بمرارة خلال المراسم الحزينة وزوجة الضابط الشاب أو أرملته تبكي وطفلتاها الصغيرتان تنوحان على أبيهما، فكيف يسعى زوجها إلى الموت بقدميه؟! والمركز الذي نقل إليه هو بؤرة الإرهاب في جنوب مصر ووقائع الاغتيال المتبادل بين الفريقين تتوالى وقد راح ضحيتها ضابط كبير برتبة اللواء وآخر برتبة العميد أطلقوا عليه 90 طلقة قتلته هو وحراسه الأربعة فضلاً عن المخبرين وأمناء الشرطة والجنود الذين سقطوا في هذه الأحداث الدامية.

لكن المأمور الجديد لا يجد مفراً من أداء الواجب وتنفيد قرار النقل رغم إدراكه ما هو مقدم عليه.. ويسافر إلى مركزه الجديد ويدخل مكتبه فيلاحظ أن على بابه يقف جنديان ومساعد شرطة يحملون السلاح الآلي، في حين يسند هو إلى الحائط بندقيته الآلية من طراز كلاشينكوف التي سلمت إليه في اللحظة التي دخل فيها إلى المركز.. ويبدأ ممارسة مهام منصبه في هذا الجو العصيب. المشحون بالترقب والتوجس والغموض!.

وبهذه البداية الدرامية ينبه مؤلف هذه الرواية الواقعية ضابط الشرطة حمدي البطران كل حواسنا ويثير فضولنا لمعرفة ماذا سيكون من أمره في هذه المعركة المحتدمة وماذا سيكون تأثيرها عليه؟.

ولقد اختار الضابط الأديب لروايته الوثائقية هذه عنوان: «يوميات ضابط في الأرياف» استرجاعاً لذكرى رواية توفيق الحكيم الشهيرة «يوميات نائب في الأرياف» التي كتبها الأديب الكبير عن فترة عمله كوكيل للنيابة في الأقاليم، وصدرت هذه الرواية عن دار الهلال في شهر فبراير الماضي بعد أن هدأت نيران المعركة بين الشرطة والعناصر المسلحة في صعيد مصر فلفتت الرواية انتباه بعض نقاد الأدب لا بقيمتها الفنية والأدبية وحدهما وإنما أيضاً بقيمتها الوثائقية وكشفها الكثير من أسرار المعركة التي جرت على أرض الجنوب واستمرت عدة أعوام بين الشرطة وعناصر الجماعات المسلحة. ولم أقرأ هذه الرواية للأسف عند صدورها لكني سمعت عنها من بعض أصدقائي الذين قرأوها وأذهلتهم بما تضمنته من وقائع مخيفة ومصادمة للمشاعر، وحين بحثت عنها لأقرأها كان الضابط الأديب قد أحيل إلى التحقيق في وزارة الداخلية بتهمة إفشاء أسرار العمل، وثار الجدل في المجتمع الأدبي بمصر حول الخيط الرفيع بين العمل الأدبي والوثيقة الأدبية التي تعتمد على حقائق واقعية، وإلى أي مدى يجوز للسلطات

المختصة أن تتعامل مع الرواية الأدبية كمصدر للمعلومات التي تعتبر سرية من وجهة نظرها.

ثم خمدت العاصفة التي أثارتها الرواية ولا أدري إلى أين انتهى التحقيق مع مؤلفها، وهل شفعت له أم لا سوابقه الأدبية كمؤلف لمجموعة قصصية وثلاث روايات أخرى، في اعتبار روايته هذه مجرد عمل أدبي، وليست إفشاء لأسرار عمل الشرطة؟. لكن المرجح أن يكون قد عوقب إدارياً لفضحه بعض الأساليب التي استخدمتها الشرطة في صراعها مع الإرهاب ولكشفه أسرار ما جرى خلال المعركة من بعض الأمور والتجاوزات على نحو يرفض العقل الأمني معه اعتبارها مجرد وقائع أدبية من نسج خيال المؤلف.

فماذا يقول لنا الضابط الأديب حمدي البطران في روايته المخيفة هذه؟ لقد جلس المأمور الجديد إلى مكتبه بالصعيد تاركاً وراءه زوجته وأسرته الصغيرة في القاهرة، فكان أول المتصلين به رئيس المدينة يطلب زيارته للتهنئة بمنصبه الجديد.. وخرج المأمور لاستقباله فوجده قد اصطحب معه رجلاً يرتدي بدلة صيفية ضيقة عند الإبطين قدمه له بأنه أمين الحزب الوطني بالمركز ورجلاً آخر شديد الطول والنحافة قدمه له بأنه رئيس المجلس المحلي ورجلاً ثالثا يرتدي بدلة صوفية في عز الحر ويتجاوز الخمسين من العمر وقدمه له بأنه أمين شباب الحزب!.

وبعد عبارات المجاملة والترحيب المألوفة عرض رئيس المدينة خدماته لتيسير مهمة المأمور الجديد، فكان أول طلب للمأمور هو تدبير مكان يتسع لإقامة ألفي جندي من جنود الأمن المركزي وقوات الأمن، يتطلب الموقف وجودهم في المركز.. وانشغل الرجلان ببحث وسائل الإعاشة ومكان السكن لهم فإذا بهما يسمعان صوت سقوط جسم على الأرض ويلتفتان حولهما فيجدان الرجل الطويل النحيل مستلقياً بظهره على الأرض وقدماه مرفوعتان لأعلى! فلقد كان يجلس على مقعد بلا ظهر ونسي ذلك ورجع بظهره للوراء ففقد توازنه وخر ساقطاً على الأرض، وانفجر الحاضرون جميعا في ضحك هيستيري كأنما يعوضون به ما يستشعرونه جميعاً من اضطراب وقلق وخوف من المجهول! وخرج المأمور يتفقد مباني المركز ورأى امرأة ترتدي النقاب الأسود وتحمل كيساً من البلاستيك يحوي بعض الأطعمة فما إن اقترب منها حتى قالت له بصوت خافت: أخوي ماضي له سبوعين عندكم؟.

ويسألها المأمور: هل هو محجوز بمركز الشرطة؟ فتجيبه: من غير سبب أخذوه في اللمة! فيأمر بإدخال الطعام الذي جاءت به إلى شقيقها بعد تفتيشه جيدا! وتمضي الأحداث بالمأمور الجديد وبهذه المدينة التي تحيا في ظلال كابوس مخيف من العنف الدامي بين طرفي المعركة.. ويعود المأمور إلى عمله ذات صباح فيلفت انتباهه أن جندي الحراسة الذي يقف بباب مركز الشرطة لم يطلق نداءه الجهير: انتباه! ويعرف من ذلك أن ضابطاً أكبر منه رتبة لابد أن يكون بداخل مبنى المركز.. ويمضي إلى الداخل فيعرف بالفعل أن مفتشاً من وزارة الداخلية قد جاء للتفتيش على سلامة إجراءات العمل، ويحييه المأمور ثم يدخل إلى غرفته فيأتيه

بعد قليل نائبه ليقول له إن المفتش قد وجد تسعة أشخاص في الحجز بدون أوراق تسوغ حجزهم، ويتساءل المأمور دهشاً: كيف؟ ويعترف الرجل بضمير الأديب قبل ضمير رجل الشرطة، بأن دهشته لم تكن تتعلق بوجود أشخاص في الحجز دون مسوغ، وإنما بكيفية عثور المفتش عليهم واكتشافه أمرهم، فلقد كان يعرف بوجود هؤلاء الأشخاص في الحجز ويعرف أنهم محجوزون - حسب التعبير الشرطي - على ذمة أمن الدولة، أي لحساب مباحث أمن الدولة بلا أوراق وهو عرف من أعراف الشرطة في عالمنا الثالث السعيد حين يتم توسيع دائرة الاشتباه والتحفظ على بعض الأشخاص بهدف الضغط عليهم للإدلاء بمعلومات عن الهاربين أو المطلوب القبض عليهم، لكنه عرف آخر لدى الشرطة أن يتم إخفاء هؤلاء الأشخاص المحتجزين بلا مسوغ قانوني عن عيني مفتش الداخلية حين يجيء لأداء عمله وعن عيني وكيل النيابة حين يقوم بتفتيش حجز المركز مرة كل شهر، فكيف عثر المفتش على هؤلاء؟ هكذا تساءل المأمور أمام نائبه، فتذكرت موقفاً مماثلاً سجله توفيق الحكيم في رائعته القديمة «يوميات نائب» حين طلب تفتيش حجز المركز فاستمهله المأمور بضع لحظات وهرول خارجاً من المكتب ثم أطل وكيل النيابة الشاب بالصدفة من نافذة الغرفة فرأى جاويش المركز يخرج بضعة أشخاص من الحجز ويدفعهم أمامه ليخفيهم في اسطبل الخيل، ويتأمل وكيل النيابة الفنان المشهد ثم يقول لكاتبه العجوز بانزعاج: هذا.. ولا سجن الباستيل! فيجيبه كاتب النيابة الذي عركته السنون بأن «الوقت صعب» ولا داعي لأن يتشدد «سعادته» في مثل هذا الأمر وأن من الأفضل أن يوقع دفاتر الحجز ويتجاهل ما رأى مراعاة للظروف الحاضرة!.

ولأن «الظروف الحاضرة» تتجدد باستمرار وتتكرر إلى ما لانهاية فلسوف يظل هناك مبرر دائماً للتغاضي عن مثل هذه التجاوزات بنفس الحجة ونفس الظروف وهي «صعوبة الوقت» أي حساسيته.

وبين المهام الروتينية وتطورات الصراع المحتدم بين فلول الهاربين من جانب ورجال أمن الدولة وضباط الأمن المركزي من جانب آخر تلتقط عين المأمور الأديب بعض الصور التي تستحق التسجيل والتأمل.

فوسط هذا الجو الكئيب يستدعى عسكرى الشرطة المخصص لمكتبه وهو رجل ضخم وطويل طولا فارعا اسمه أبو شخلول ويعطيه عشرة جنيهات ويطلب منه شراء: أي شريط «ميوزيك!».

فيتسلم العسكري النقود ويهز رأسه علامة على الفهم ثم يسأله من باب التأكد من الأجزخانة يا باشا؟ ويكتم المأمور ضحكة ويرشده لشراء الشريط المطلوب من أي محل لبيع شرائط الكاسيت وبعد يومين يعطيه بضعة شرائط ويعيد إليه من مبلغ الجنيهات العشرة التي أعطاها له سبعة جنيهات كاملة!.

ويدخل على المأمور رجل أسمر بدين بدانة مفرطة يرتدي جلبابا من الصوف الثقيل ويلتف بشال من الكشمير ويعانق المأمور مرحباً به بحرارة وهو يؤكد له

أن المدينة قد رأت «النور» في حياتها مرتين مرة حين دخلتها الكهرباء والثانية حين عُيِّن هو مأموراً لمركزها!.

ويعرف المأمور أن هذا الشخص البدين هو همام عمدة إحدى البلدات التابعة للمركز والشخصية الخطيرة ذات النفوذ في مجتمعها الصغير وصاحب الذكاء الفطري الحاد والعلاقات المتشعبة مع المسؤولين بمديرية الأمن والمولع بالنساء والذي لم يتورع عن قتل زوج امرأة أعجبته لكي يتزوجها، كما لم يتورع عن فعل ما يريد وارتكاب الجريمة في سبيل فرض نفوذه وإتاواته على أبناء بلدته من العاملين خارج مصر، دون أن يجسر أحد على الشهادة عليه أو الإبلاغ عنه.

ويدخل رئيس وحدة المباحث بالمركز إلى المأمور ليبلغه بأنه قد نما إلى علمه أن ثلاثة من العناصر الهاربة يختبئون بمنزل مهجور بضواحي المدينة وتبدأ الاستعدادات للقيام بهجوم واسع من رجال الشرطة على البيت المهجور.. ويجيء لواء من مديرية الأمن لقيادة المعركة وضابط برتبة العقيد من مباحث أمن الدولة، وتتحرك الحملة في الموعد المحدد تتقدمها سيارة نصف نقل للتمويه وتتضمن ستة جرارات زراعية وجرافة كبيرة وعربات تحمل الجنود، وتحيط القوة بالمنزل المهجور من كل الجوانب ويبدأ الاقتحام وينطلق الرصاص بغزارة وتعلو صرخات النساء.. ويرجع ضابط شرطة من المنزل فيقول لمساعد مدير الأمن:

-_لم نجد أحدا!.

ويسأله اللواء:

_ على من أطلقتم الرصاص؟.

فيجيب:

_ أطلقناه على الموجودين بالمنزل ولكن لم يصب أحد! ويرجع الضباط من داخل المنزل ومعهم رجلان وامرأة مسنة وأطفال وأحد الرجلين يصيح: خربوا بيتي منهم لله. لله! ولا يفوت الأديب مأمور الشرطة أن يسجل أنه لم يفهم من هم المقصودون بهذا الدعاء، هل هم العناصر الهاربة التي تنتمي عائليا لهذا الرجل وكانت السبب في اقتحام بيته وترويع أسرته؟ أم هم أفراد قوات الشرطة التي جاءت وراءهم فأطلقت الرصاص كالمطر على البيت؟!.

وتفشل هذه الحملة على غير المتوقع، لكن مهمة أخرى تنتظر مأمور المركز فلقد تلقى إشارة عن قتل ثلاثة من أعضاء الجماعات في المركز المجاور وهم من أبناء قرية تابعة لمركز المأمور كاتب اليوميات ولابد من دفنهم في مدافنها، ونكتشف نحن من قراءة هذه الرواية أن عملية دفن قتلى هذا الصراع بين الشرطة والجماعات لم تكن تقل خطراً وخطورة عن عمليات الهجوم المسلح على هذه العناصر، فقبيل الغروب خرج المأمور مع قوة كبيرة من الجنود وعدد محدود من أهالي القتلى وانتظروا عند أول الطريق المؤدي للمدافن وبعد قليل وصلت سيارة شرطة يركب فيها ضابط برتبة نقيب ومن بعدها سيارة الإسعاف البيضاء التي تطلق أصواتاً كالصراخ ومن ورائها موكب يضم ثلاث سيارات كبيرة تحمل تشكيلاً

كاملا من الجنود المسلحين ومعهم عدد كبير من الضباط، ومساعد مدير الأمن وضابط كبير من أمن الدولة.

ويتحرك الموكب الجنائزي إلى المدافن تتقدمه سيارة المأمور، وتبدأ عملية الدفن وسط حراسة مشددة، وفي جو بالغ التوتر والشجن في نفس الوقت، ويقف المأمور يرقب الموقف ويستمع في صمت لأحد الأهالي يشرح له طبيعة المنطقة وتاريخها، ثم فجأة تظهر في المكان حوالي خمسين امرأة يتشحن بالسواد وهن يصرخن ويلطمن وواحدة منهن تحدولهن حداءها الرتيب الحزين فتقول:

- أيوه دا نزعل عليه.

- أيوه دا نزعل عليه.

- السلاح الحلو في إيديه.

- ما يخيل إلا عليه.

والنساء يرددن النداء وراءها ثم يشتركن في نواح جماعي موجع للقلب فيهتفن معا:

- يوى.. يوى.. يوى!.

ويتسلل الشجن إلى نفس المأمور الذي يطالبه واجبه بأن يظل جامد المشاعر في هذه اللحظة الكئيبة، ويلحظ هو أن المدرس الذي كان يتقرب إليه بالحديث عن تاريخ المنطقة قد أدار وجهه للناحية الأخرى ليداري دمعة ساخنة طفرت من عينيه، ويرى الرجال من الأهالي الواقفين بالقرب منه يدفنون وجوههم في مناديلهم ليمسحوا دموعهم الغزيرة التي استدرها إنشاد المرأة الحزين، ويدرك المأمور أن القضية أعمق غوراً من كونها مجرد صراع بين رجال الشرطة وبعض العناصر المسلحة الهاربة، وأن جذور الثأر بين الفريقين عميقة وليست عابرة وتحتاج إلى وقت طويل لاجتثاث جذورها، وإلى أن يتحقق ذلك - وما هو بالأمر الهين - فلسوف تظل القرية كما رآها في هذا المشهد المأساوي الحزين تبكي شبابها الذين «زانهم السلاح» كما قالت المنشدة الحزينة في رثائها لهم.. وفي مواجهة رجال الشرطة لأنهم على حد تعبير كاتب الرواية الخطيرة قد مرغوا هيبة الشرطة في التراب!.

وتواصل المرأة حداءها الأليم فتقول:

عيني عليه لما وقع.

والدم من جرحه نقع.

عيني عليه لما راح.

والدم من جرحه ساح.

ثم ينوح الكورال الجنائزي من بعدها: يوى.. يوى.. يوى، فيفكر المأمور الذي بدأ الشجن والاكتئاب يتسللان إلى نفسه في طريقة لمنع هؤلاء النسوة من الاسترسال في نواحهن المفجع، لكنه يتراجع عن ذلك قائلاً لنفسه إنه لا ينبغي أن يحرم هؤلاء البشر حتى من الحزن على ضحاياهم!.

ويكتفي بمراقبة الموقف والشجن يتكثف في داخله، والرغبة في مغادرة هذا المسرح التراجيدي الحزين عليه أكثر من أي شيء آخر.

في الأيام الأولى لتسلمه العمل.. يدخل على المأمور الضابط النوبتجي للمركز ليعرض عليه بلاغاً تقدم به أحد الأهالي وهو فلاح اسمه فنجري اسكندر عن تغيب ابنته عزيزة البالغة من العمر سبعة عشر عاما دون أسباب واضحة، وينهي الأب بلاغه بأن ابنته مريضة نفسياً ولا يتهم أحداً باختطافها.

وطوال أحداث هذه الرواية سوف يطل علينا من حين إلى آخر مشهد جديد من مشاهد قصة اختفاء الفتاة القبطية عزيزة لتصبح الخط الدرامي الذي يربط بين أحداث الرواية ويذكرنا بالخط المماثل لقصة الفتاة الريفية الجميلة «ريم» في رواية توفيق الحكيم «يوميات نائب في الأرياف»، ثم تتواصل يوميات الضابط الأديب لترسم لنا معالم هذا العالم الغريب المشحون بعوامل الخوف والحزن والترقب.

يركب مأمور الشرطة سيارة المركز إلى المدينة القريبة للقاء اللواء نائب مدير الأمن للمنطقة، وتمضي سيارته في الطريق السريع تتقدمها سيارة حراسة وتتبعها أخرى وبعد قليل يتوقف سائق سيارته ويقول للمأمور بضيق: تفتيش! وينظر المأمور فيرى حاجزا أمنيا وسيارتين للشرطة وعدداً من الضباط صغار السن يرتدون بنطلونات الجينز ويحملون الرشاشات يوقفون السيارات ويدققون في أوراق ركابها وينظر إلى يمينه فيرى في كشك المرور أربعة أشخاص يرتدون الجلاليب الواسعة ويلاحظ أنهم مقيدون إلى بعضهم البعض من خلال أكمام جلاليبهم الطويلة ووجوه بعضهم متورمة ويتساءل عن سبب احتجازهم فيقول له أحد الضباط الصغار في سأم: اشتباه!. أي الاشتباه في انتمائهم للجماعات الدينية.

ويقول آخر إنه كلما اكتمل عدد المشتبه فيهم ستة أو سبعة فإنه يتم نقلهم لمقر المنطقة لاستجوابهم، ويتنهد ضابط آخر صغير السن من أبناء مدينة الإسكندرية في ضيق ويتساءل: متى نرجع لبلادنا؟.

مبنى المنطقة يبدو وكأنه قلعة حصينة فالطرق المؤدية إليه من كل الجهات بها حواجز للشرطة وعلى باب المبنى شاهد الضابط الأديب إعلانات تحمل صوراً باهتة لأشخاص متطرفين مطلوب القبض عليهم وتعجب لوضع الصور في هذا المكان الذي لا يقترب منه أحد سوى رجال الشرطة.

وفي المكتب الواسع وجد سيادة اللواء يرتدي بدلة تدريب رياضية «ترينتج سوت» ويجلس مسترخياً إلى أريكة وفي يده تفاحة كبيرة وأمامه طبق به ثلاث أخريات وفي يده الأخرى جهاز اللاسلكي يتابع من خلاله حالة الأمن ويرحب

اللواء بالمأمور ويدعوه لتناول الشاي دون أن يفكر في دعوته لتناول إحدى ثمرات التفاح، ويدخل عليهما العقيد حسن مشرف السياحة ليبلغ اللواء بأن «السياح» قد غادروا المنطقة بسلام، ويكتشف المأمور أن هؤلاء السياح ليسوا سوى سائح واحد وزوجته وقد تزوجا قبل يومين في مصر ورغبا في زيارة منطقة أثرية قريبة ففوجئا بركب من سيارات الحراسة يتقدمهما ويتبعهما ويشعر معه السائح بأنه أهم من الرئيس الأمريكي نفسه، وتشعر الزوجة بالامتنان الشديد لهذه المجاملة فتطلب من أحد خفراء الآثار الذين يجيدون الإنجليزية أن يبلغ شكرها للحكومة المصرية لترتيبها لموكب الزفاف الجميل هذا احتفالاً بزواجهما السعيد.

يدخل الضابط المناوب على المأمور ويعرض عليه محضر التحقيق في واقعة اختفاء عزيزة فنجري اسكندر، فيعرف منه أنه قد تم العثور على جثتها في قاع بئر مهجورة بالقرب من بيت والدها، وينتهي المحضر بعدم توجيه الأب الاتهام لأحد بقتلها.

يُدعى مأمور الشرطة للذهاب إلى عاصمة المحافظة لاجتماع في مديرية الأمن فيتوجه إلى هناك حاملاً سلاحه وفي مبنى المديرية يلتقي بالعديد من الضباط، ويفاجأ بأحدهم يقترب منه صائحا: حمدي.. الله يخيبك.. جيت هنا إزاي؟. ويلتفت إليه فيصيح بدوره مرحبا: شوكت!. ونعرف نحن من حديثهما أنهما زميلان في الدراسة بكلية الشرطة وأن شوكت هذا كان منذ صباه شاباً «شقياً» متمرداً وكثير العلاقات النسائية، وبعد تخرجه عمل بشرطة السياحة والآثار حيث تفتحت أمامه أبواب الشقاوة على مصاريعها فوجد نفسه بعد قليل «نجماً» مرموقا بين السائحات الأجنبيات والعربيات والأفريقيات يمضي نهاره جالسا في بهو الاستقبال يرامق السائحات النظر ويلفت انتباههن بوسامته الشديدة وجسمه الممشوق، ويصطحب من تقع أسيرة لسحره ليقضى معها وقتاً ممتعاً، وفي نهاية اللقاء قد تقدم له السائحة هدية مالية وهي تشكره على الوقت الممتع الذي قضته بصحبته فيقبله شاكراً، ويوما بعد يوم يصبح هذا «الوقت الممتع» مصدر دخل كبير للضابط الوسيم، ويعترف لصديقه القديم بأن دخله منه قد بلغ في بعض الأوقات 500 دولار كل يوم، لكن العاملين بالفندق «نفسوا» عليه هذه « النعمة » وأبلغوا الداخلية عنه.. وأحيل للتحقيق وانتهى الأمر بمعاقبته إدارياً ونقله إلى الصعيد في ذروة اشتعال المعركة مع الإرهاب.

وينعقد الاجتماع الخطير في غرفة مدير الأمن ويستعرض الحاضرون الأوضاع الأمنية في المحافظة، ويشكو بعضهم من أنهم يواجهون الإرهاب وحدهم دون مساندة من باقي فئات الشعب، ويعلق المدير على ذلك قائلا: هذا قدرنا!.

وينصرف الحاضرون بعد الاجتماع، لكن المدير يستبقي مأمور الشرطة الأديب ليبلغه بأن هناك حملة مكبرة سوف تجري في نطاق مركزه هذه الليلة للهجوم على بعض العناصر المسلحة في مخابئها ويطلب منه الاستعداد لها.

تتجمع القوات في المركز ابتداء من العاشرة مساء ويعرف المأمور من ضابط أمن الدولة أنهم قد اكتشفوا مخبأ هذه العناصر عن طريق مراقبة بائع خبز يقوم ببيع الخبز الأفرنجي لبعض محال الأطعمة في القرى، بعد أن لاحظوا أنه يبيع الكمية التي يحملها كلها في قرية معينة يومي الأحد والأربعاء من كل أسبوع، واستنتجوا من ذلك وجود بعض العناصر المختبئة في هذه القرية، وراقبوا فلاحا ينتظر هذا البائع في الموعد المحدد ويتسلم منه الخبز وبعض كميات اللحم، ورأوا عن طريق المنظار المعظم بعض عناصر الجماعات يتسلمون الخبز واللحم من الفلاح في الجبل في هذين اليومين، واكتملت الاستعدادات للحملة بوصول اللواء مساعد مدير الأمن وضباط الأمن المركزي وهم ضباط صغار السن ويرتدون الملابس السوداء ومدربون تدريباً عالياً على الاقتحام والقتال.

وتحركت الحملة إلى القرية الموعودة، وانتظرت ساعات في مقر نقطة الشرطة بها ثم تحركت مرة أخرى إلى منطقة الجبل في ثلاث مدرعات، وتقدم من ضباط الأمن المركزي الشبان بملابسهم السوداء وفى يد كل منهم بندقية آلية وجهاز لاسلكي وهم يهرولون وظهورهم منحنية ليكمنوا عند مخارج مغارة في الجبل تختبئ بها العناصر المسلحة.. ووقف المأمور إلى جوار اللواء مساعد مدير الأمن يحبسان أنفاسهما ترقباً لما سيجري حين يخرج هؤلاء المختبئون من مغارتهم في الرابعة صباحاً لصلاة الفجر، وبعد نصف ساعة من الصمت والترقب سمعا صوت انطلاق ثلاث دفعات من البنادق الآلية.

وصفّر جهاز اللاسلكي في يد اللواء بعد قليل- وسمع صوتاً واضحاً يقول:

مبروك يا باشا، المأمورية انتهت، ممكن تتفضل!.

وتقدم «الباشا» مع بقية الضباط والجنود إلى موقع الاشتباك ونهض ضباط الأمن المركزي المنبطحون من الأرض وقال أحدهم إن هناك أربعة قتلى من العناصر المسلحة، وتقدم رجال أمن الدولة لفحص الجثث وتفتيش جيوب ملابسها ثم دخلوا إلى المغارة التي كانت مأوى لهم فعثروا على كيس فيه كمية كبيرة من طلقات الرصاص وكيس آخر وجدوا فيه 11 رزمة من الأوراق النقدية فئة العشرين جنيهاً وبعض الخطابات وكشكولين عن قتال كفار العصر الحديث والأدلة الشرعية التي تجيز قتالهم!. وهناك ملابس لرجال شرطة وبطاقات شخصية وعائلية مزورة وطيور أثرية محنطة. ورجع الركب من مهمته فسأل سائق سيارة المأمور رئيسه:

- صحيح يا باشا لقيتوا فلوس!.

ولم يجب المأمور، لكنه فوجئ بعد قليل بضابط أمن الدولة يقول له:

- عن إذنك يا باشا نوزع الغنائم!.

ثم قام بإفراغ محتويات كيس النقود على مقدمة السيارة واصطف أمامه الجنود الذين شاركوا في الحملة فأعطى كلا منهم ورقتين من فئة العشرين جنيها وأعطى السائقين والمخبرين وحراس نائب المدير وحارس المأمور 4 أوراق لكل منهم.

وعندما رجع المأمور إلى مكتبه لمس وجوم رئيس وحدة المباحث بالمركز واكتئابه، وكان قد لاحظ عليه في الفترة السابقة وجومه وحزنه غير المفهومين حتى ظن أنه ينفر منه شخصياً لسبب لا يعلمه، فسأله عما به فأجابه: أبداً فقط لم أتمكن من صلاة الفجر!.

فتأكد المأمور من أن شيئاً ما قد تغير داخل هذا الضابط الشاب ولهذا فينبغي مراقبته جيدا!.

ولم يطل ترقب المأمور لما يمكن أن يسفر عنه «تغير» هذا الضابط الشاب، فبعد أيام عثر على شاب من أهل البلدة غريقاً وبعد إخراج جثته تبين أنه قد قتل قبل إلقائه بالنهر، وألمح والده لرجال النيابة باتهامه الشرطة بقتل ابنه للشك في صلته بالجماعات، وبدأت النيابة التحقيق ففوجئ الجميع باستدعاء وكيل النيابة ثلاثة من ضباط الأمن المركزي الذين شاركوا في إحدى الحملات بتهمة قتل هذا الشاب، وتساءل رجال الشرطة في انزعاج عمن أبلغ النيابة بأسماء هؤلاء الضباط وهي في العادة من الأسرار المضنون بها حتى على رجال الشرطة أنفسهم، وتبين أن رئيس وحدة المباحث هو الذي أبلغ والد القتيل والنيابة بأسمائهم فلم تمض ساعات حتى كان قد صدر القرار بنقله للمطافئ وتعيين رئيس جديد لوحدة المباحث!.

يستأنف معاون المركز التحقيق في حادث غرق عزيزة فنجري اسكندر ويواجه والدها ببعض المعلومات عن تورطه هو شخصياً في قتلها، فيعترف ببساطة بأنه قد قتل ابنته بالفعل في الحقل وحمل جثتها وألقاها في البئر، ويسأله عن السبب فيجيبه بعفوية: علشان أغسل عاري وأشيل الهم من جواي!.

ويتضح أن الأب كان يشك في سلوك ابنته، وأنها كانت تكثر من الخروج وحدها، وترفض أن تجيب على أسئلة أبيها حين يسألها أين كانت، فقرر أن يتخلص منها.. ثم تكتمل فصول المأساة الدرامية حين يكشف تشريح الجثة أن الفتاة كانت عذراء وأنها قد قتلت بالشبهة والظن بسوء سلوكها فقط.

يرجع العمدة همّام إلى الظهور مرة أخرى في مكتب مأمور الشرطة الأديب، ويواصل العمدة الغامض طريقته في المبالغة في المديح والإطراء فيزعم للمأمور بأن «الخير» قد زاد في البلدة منذ مجيئه مأموراً إليها ويهنئه بظهور «البشائر» على مقدمه السعيد، ويتساءل المأمور عن معنى هذه البشائر فيشرح له العمدة أنها تعني ظهور علامات على وجود دفينة أثرية في البلدة ظهرت بعض بشائرها بالفعل، ثم يقدم له إحداها وهي تمثال فرعوني بديع لحشرة الجعران من المرمر الأسود وتمثال آخر لطائر يشبه الخفاش ويطلب من المأمور اختيار أحدهما لوضعه على مكتبه مؤكداً له أن ثمنه لا يقل عن عشرين ألف جنيه، لكن المأمور يقرر أن يحرق قلب العمدة على البشائر الثمينة هذه ويتجاهل طلبه بأن يختار أحد التمثالين ويضعهما معًا في مكتبه قائلاً له: هدية مقبولة ياعمدة!.

فلا يملك العمدة إلا الصمت والنهوض مصافحا المأمور وهو يؤكد له أنه يستحق ماهو أكثر من ذلك!.

يستقبل المأمور فجأة عقيدا سبقت له زيارة المركز عدة مرات لمراقبة أحواله من قبل، ويجلس الزائر في مكتب المأمور صامتاً ومحرجاً فيرن جرس التليفون ويسمع المأمور صوت مدير الأمن يقول:

- يا فلان أحضر حقيبتك معك وتعال لمقابلتي، فقد عين العقيد عبد المجيد مأموراً للمركز بدلا منك!.

ويضع الضابط الأديب السماعة وعبد المجيد ينظر إليه بإشفاق ثم ينهض لإخراج أوراقه فيجد التمثالين في درج مكتبه فيعطيهما للمأمور الجديد قائلاً له:

إنهما هدية العمدة همام للمكتب.. ويتفحصهما عبد المجيد الذي عمل من قبل بشرطة الآثار ويعرف قيمة مثل هذه التماثيل النادرة فيتردد في قبولهما ويقول له: «إنها جريمة»، لكن المأمور المعزول يصر على ترك التمثالين له بدعوى أنهما «بركة» من الفراعنة، ويغادر المكتب وساحة هذه الأحداث الدرامية العجيبة إلى غير عودة.

وتنتهي هذه الرواية الخطيرة التي استغرقتني بأحداثها وجوها الغريب ودلالاتها المخيفة طوال فترة قراءتي لها، فكيف يمكنٍ الحكم عليها بعد الانتهاء من قراءتها؟. وهل نستطيع حقاً أن نعتبرها عملاً أدبياً بحتاً ونركن إلى مثل هذا التفسير الأدبي ونستريح؟. أم ترى أن الكثير من وقائعها المخيفة يتجاوز بالفعل حدود هذا التفسير السهل، ويثير الكثير.. والكثير من علامات التساؤل وأسباب الانزعاج؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

علمته الأحزان نظم القصيد!

ذكرني هذا الشاعر بما ظننت أني قد نسيت، وأثار تأملاتي الحزينة

والقصة هي أنه قد جاءني زميل صحفي لا أعرفه يعمل بإحدى الدول العربية، وقال إنه يحمل لي رسالة من صديق له يعمل بنفس الدولة و «بروفة» كتاب.. فتحت الرسالة وقرأتها فوجدت صاحبها يرجوني أن أقرأ بروفة ديوانه الشعري المرفق مع الرسالة، وأن أكتب له مقدمته ويستحلفني أن أفعل ذلك على غير معرفة به، تشجيعاً له وشحذاً لهمته حيث إنه ديوانه الأول، ويبلغني أنه سيرجع إلى القاهرة في إجازته السنوية بعد أسبوعين ويأمل أن يجد المقدمة جاهزة قبل أن تنتهي إجازته بمصر.

يا إلهي .. ماذا أفعل مع من يتوسم فيَّ الاستعداد لتقديم هذا العطاء له، ويؤلمه بغير شك أن أخذله؟

إنني لو استمعت لنداء العقل وحده لاعتذرت عن عدم الاستجابة لهذا الرجاء على الفور، ولما لامني أحد على ذلك، فوقتي مشحون بواجبات ثقيلة لا تدع لي أحياناً فرصة لالتقاط الأنفاس أو القيام بكثير من المهام الضرورية والواجبات الاجتماعية، ولقد راجعت جدولي خلال الشهور الأخيرة، فوجدتني أقضى داخل جدران مؤسسة الأهرام التي أعمل بها ما لا يقل عن 11 أو 12 ساعة كل يوم موزعة على فترتي الصباح «والسهرة» ولا أقول فترة المساء لأنني أرجع من عملي إلى بيتي في السادسة مساء أو السادسة والنصف فأتناول طعام «الغداء» المتأخر، وتنهار مقاومتي فجأة وأنا أحتسي الشاي فأستسلم لنوم أشبه بنوم الغيبوبة لحوالي الساعة ثم أنهض مثقل الرأس سقيم الوجدان فأسرع بارتداء ملابسي والعوده للأهرام في التاسعة فأبقى في مكتبي إلى أن يشاء الله، وأرجع إلى بيتي في الثانية صباحا، فلا يتاح لي سوى تلك الساعات الثلاث حتى الخامسة صباحاً لكتابة كل ما أريد كتابته وقراءة كل ما «أتمنى» قراءته، وأدخل إلى فراشي بعد الخامسة، وأنهض من نومي في العاشرة لأواصل اللهاث والجري بلا نهاية.

فكيف يتسع مثل هذا الجدول المرهق للاستجابة لنداء قارئ حسن الظن بي، ولديَّ كتابان جديدان ينتظر مؤلف كل منهما أن أكتب له مقدمته منذ بضعة أسابيع؟ ولماذا لا أكون أكثر «حزماً» مع نفسى فأعتذر من البداية بضيق وقتي عن عدم تلبية مثل هذا النداء فأريح وأستريح؟

ولماذا أخجل دائماً ممن يطلب مني ذلك الطلب فأعده بالاستجابة له، ثم أضيق بالدنيا كلها بعد ذلك وأنهال على نفسي لوماً وتقريعاً؟ وأتساءل كيف سأفعل ما وعدت به وقد عجزت في بعض الفترات عن الانتظام في الكتابة في بعض المجلات التي أكتب بها بسبب ضيق الوقت؟

نعم إنني أقدّر مشاعر الآخرين وأعرف كم يكون مؤلما لكاتب ناشئ أن تصدمه بالرفض من الوهلة الأولى، وأتمثل دائماً في قسوتي على نفسي للاستجابة لمثل هذا النداء، بأستاذنا الأديب الكبير يحيى حقي، الذي كان رحمه الله لا يرد طلباً لأديب ناشئ يلتمس تشجيعه الأدبي له بكتابة مقدمة لكتابه الأول.

وظل يقدم هذا العطاء لكل من يطلبه بسماحه أبوية وأستاذية طبيعية فيه، إلى أن عجز عن الكتابة في سنواته الأخيرة بسبب ضعف النظر، لكن أين أنا من الأديب الكبير وقد كان أستاذاً لمدرسة وناقداً أدبياً بفطرته وقد تخلى عن الوظائف والمسؤوليات في العشرين عاماً الأخيرة من عمره فاتسع وقته لمثل هذا العطاء الأبوي الفياض؟

لا فائدة على أية حال من اللوم بعد فوات الأوان، فلقد عجزت نفسياً عن الاعتذار للزميل الذي قدم إليّ بروفة الكتاب، وحملتها إلى بيتي ووضعتها على مكتبي فوق تل الواجبات التي تنتظر الأداء، واستغرقتني دوامة العمل والحياة إلى أن أفقت ذات يوم على تليفون من الشاعر الشاب، يبلغني أنه قد وصل للقاهرة ويسأل متى يتسلم مني المقدمة.. فتجدد الإحساس القديم لديّ بالاختناق، والعجز عن القيام بكل ما أتمنى القيام به وجاهدت نفسي ذات ليلة فخصصت الساعات الثلاث «اليتيمة» التي تسمح لي بها ظروفي لديوانه، وجلست إلى مكتبي بالبيت لأقرأه فوجدت صاحبه يقول في مقدمته إن رحيل ابن شقيقه الصغير عن الحياة وحزنه الشديد عليه كانا الشرارة الأولى التي فجرت لديه لهب الشعر المقدس فكتب أولى قصائده في رثاء هذا الابن، ثم تواصلت الشرارة بعد ذلك فكتب بقية قصائد الديوان، ولم تكن له قبل هذا الحدث الحزين تجربة جادة في الشعر، ولم يكن يعد نفسه قبل ذلك شاعراً! فتوقفت طويلاً أمام هذه الكلمات وقرأت القصيدة التي أفرزتها مشاعر الحزن والألم لديه عدة مرات ثم قرأت بقيه قصائد الديوان فوجدت نغمة الحزن الشفيف تشيع فيها جميعاً.

وتساءلت: هل يكون الألم هو أقدر المشاعر الإنسانية على تحريك الشعور وإطلاق شرارة الإبداع لدى الفنان؟

إن كل المشاعر الإنسانية تستطيع أن تطلق شرارة الإبداع لدى الإنسان، لكن الألم والحب فيما يبدو هما أقواها أثراً في ذلك، حتى لقد كتب الشاعر الإنجليزي شيلي ذات يوم مؤكداً هذا المعنى فقال:

عَّلمتنا الأحزان نظم القصيد

فأهدينا للناس في أنغام الشعر

ما تلقيناه من ضربات الألم والشقاء

لكن الأحزان لا تصنع وحدها شاعراً ولا فناناً، وإلا لأصبح كل البشر شعراء وفنانين، وما أكثر الأحزان في حياة البشر وما أندر أوقات السعادة الحقيقية في أعمارهم.

وإنما لابد أن تكون الموهبة كامنة من الأصل في أعماق الإنسان وتنتظر ما يطلقها من عقالها.

وليس كالألم شعور آخر يمكن أن يطلق شرارة الإبداع لديه، سوى شعور الحب سواء بمعناه العاطفي الخاص أو معناه الإنساني العام.

ومن خيوط الحب والألم ينسج الشاعر والفنان غالباً معظم إبداعه، ولو لم يكن الأمر يتطلب الموهبة قبل المشاعر لحق لنا أن نتساءل: ولماذا لم تعلمنا الأحزان نحن أيضاً نظم القصيد وفي العمر ما فيه من الآلام؟

بل لعلي أقول أيضاً إن من علمته الأحزان نظم القصيد قد يكون أسعد حالاً من غيره لأنه ينفس عما يكابده من آلام بالبوح بها «وبغنائها» شعراً أو فناً أو أدباً.

أما «العصافير الخرساء» التي لا تعرف الغناء فإنها تضاعف من حسرتها بما تعانيه بعجزها عن التنفيس عن الأحزان والآلام والبوح بها.

ولأن أغلبيه البشر من نوعية هذه العصافير الخرساء ولا ينشدون أحزانهم شعراً وفناً وأدباً فإنهم قد يجدون بعض عزائهم في إنشاد الموهوبين لأحزانهم بالشعر والفن والأدب نيابة عنهم، وفيما يشعرون به من شجن حين يسمعون هذا الإنشاد فترق له مشاعرهم وحين يستجيبون لآلام الآخرين ويتفهمونها لأنهم قد سبقوهم على طريق الآلام وفهموا أعماقها.

ومن يفهم أكثر يحزن أكثر كما يقول الشاعر الألماني جوته لأنه يدرك أكثر وأكثر كم هي الحياة قصيرة، وكم هي الأحزان طويلة، وكم هي أوقات السعادة الحقيقية قليلة، ولأنه يدرك أكثر وأكثر عمق «المأساة الإنسانية».. التي يلخصها لنا الشاعر الألماني ريلكه في هذه الأبيات المعبرة:

وحدنا ولدنا

وحدنا تعذبنا

وحدنا تطهرنا بنار الندم

وحدنا نموت!

ولو فهم الإنسان كل حقائق الحياة فهماً صحيحاً وعميقاً على هذا النحو لما استطاع إلا أن يهتف مع الشاعر الأصيل طاهر أبو فاشا يرحمه الله:

فياغوثاه ياغوثاه

ومن طول النوى أوّاه

و آه.. آه.. آه. آه!

وسامحك الله أيها الشاعر الشاب الذي أهداني ديوان أحزانه الخاصة فقرأتها وعايشتها فنبهت الأحزان الغائرة في النفس، تماما كما يلقي الإنسان بقطع جديدة من الخشب إلى نار المدفأة التي أوشكت على الانطفاء، فتستعيد النار عافيتها

القديمة وتتراقص باللهب الأحمر من جديد، وكلما أوشكت على الخمود تلقت زادا جديداً من «طعام الأحزان» على حد تعبير ريلكه فيحفظ لها الحياة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كـان إنسـانـاً

مازال هذا الكتاب الصغير يصاحبني في أسفاري إلى الخارج منذ دخل «الخدمة» عندي قبل سنوات!

فأنا أقرأ بصفة منتظمة منذ اخترت طريقي في الحياة، فأقرأ طلباً للمعرفة، وبحثاً عن إجابات لأسئلة محيرة.. كما أقرأ كذلك للمتعة الخالصة، وأتذكر دائماً كلمة العملاق العقاد: ليس هناك كتاب أقرؤه ولا أستفيد منه، فحتى الكتاب التافه أستفيد منه بأن أعرف كيف يفكر الكتاب التافهون وفيم يكتبون؟

لكني أقع من حين إلى آخر على كتاب أستريح إليه أكثر من غيره فأعيد قراءته أكثر من مرة وأضعه إلى جوار فراشي لأرجع إليه في ليالي الأرق التي أحتاج فيها لأن أقرأ شيئاً لا ينبه مشاعري فيبعد عني شبح النوم.

فإذا استعددت لسفر إلى الخارج اخترت كتابين أو ثلاثة كتب جديدة لأقرأها خلال الرحلة لأول مرة، واخترت معها كتابا من كتب «الخدمة المستمرة» الموضوعة إلى جوار فراشي.. لأرجع إليه وأعيد قراءة بعض فصوله حين أشعر بالملل، وقد لاحظت أن هذا الكتاب يتغير في أسفاري الداخلية والخارجية كل بضع سنوات.. فلقد يصاحبني كتاب منها عاماً أو عامين.. ولقد يصاحبني كتاب آخر عامين أو ثلاثة أو أربعة حسب الأحوال، وفي بعض المراحل كان لابد لي من أن اصطحب معي رواية أو مجموعة قصصية لأديبنا العظيم نجيب محفوظ، مع أني قرأت كل أعماله فور صدورها أكثر من مرة، وأستطيع أن أؤدي امتحاناً فيها جميعاً وأجتازه بغير رسوب.. وفي فترة أخرى عشقت كتاب «خليها على الله» للأديب العظيم يحيى حقي.. فاصطحبته معى في كل أسفاري لمدة 4 أو 5 سنوات، وفي مرحلة لاحقة حل كتابه الجميل «كناسة الدكان» محل سابقه.. وانتزع منه موقعه من حقيبة السفر، كما جاء الدور في بعض المراحل على الرواية الجميلة «ترانيم في ظل تمارا» للأديب المبدع الراحل محمد عفيفي.

لكنه كما تتغير الأيام، يتغير الكتاب «النوبتجي» الذي أمد يدي إليه لا إرادياً كلما هممت بالسفر لأضعه في حقيبتي إلى جوار الكتب الجديدة، فكأنه كتاب الدهر الذي لا أمل الرجوع إليه كلما ضاقت نفسي أو كأنه «كتاب مفتوح» بصفة دائمة ينتظر الانتهاء من قراءته وإغلاقه، وكلما فعلت ذلك تذكرت ما رواه الفنان العالمي شارلي شابلن في مذكراته من أنه اشترى كتاباً بعنوان «مقالات في الفلسفة» ووضعه إلى جوار فراشه فظل 40 عاماً يقرأ فيه من حين لآخر بضع صفحات دون أن يقرأه كاملاً مرة واحدة في حياته، أو أتذكر ما رواه أيضاً الزعيم الهندي جواهر لال نهرو من أنه اعتاد أن يقرأ في أربعة كتب في وقت واحد فيقرأ فصلاً من هذا وفصلاً من ذاك، فكانت النتيجة أن استغرق أحد الكتب منه 5 سنوات لكي يقرأه كاملاً.

ولا عجب في ذلك فهناك بالفعل كتب مفتوحة في حياة الإنسان قد لا يغلقها طوال العمر. وفي حياتي الشخصية فإن الكتاب المفتوح بصفة دائمة هو القرآن الكريم

الذي «أنظر» فيه من حين لآخر دون أن أصل أبدا إلى الشاطئ الآخر لبحره العميق.. وكثيراً ما تذكرت وأنا أحاول فهم بعض معانيه، ما رواه الشيخ الرئيس ابن سينا من أنه قرأ ذات يوم كتاباً عما وراء الطبيعة فلم يفهمه فقرأه 40 مرة حتى حفظه عن ظهر قلب ولم يفهمه أيضاً، فيئس منه ثم خرج إلى السوق فرأى بائعاً يعرض عليه كتاباً.. فرفضه بجفاء فقال له البائع: إن الكتاب رخيص وصاحبه في أشد الحاجة إلى ثمنه فاشتراه كارهاً ورجع إلى البيت فإذا به كتاب للفيلسوف الفارابي في شرح الكتاب الصعب الذي استغلق عليه فهمه، وقرأه متردداً فإذا به يفهم كل ما عجز عن فهمه من الكتاب الصعب فغادر بيته وتصدق على الفقراء ابتهاجاً بفهمه له!

واصطحبت معي في سفري هذه المرة رواية «نقطة النور» للروائي المبدع الصديق الأستاذ بهاء طاهر، واكتشفت أنها صدرت في يناير من هذا العام.. وأنه أهداها لي فور صدورها، لكني لم أرها إلا منذ ثلاثة أسابيع فقط، فلقد كنت حين أهداها لي غائباً في سفر طال شهرين في أمريكا، وتراكم البريد خلال غيابي، فلم تقع عيناي على هذه الرواية سوى مؤخراً، ودهشت حين قرأتها.. وأسفت لتأخري في اكتشافها ما يقرب من عشرة شهور، فهي تحفة فنية بالفعل.. بل لعلها من أجمل أعمال بهاء طاهر إن لم تكن أجملها على الإطلاق، ذلك أنها من هذا النوع من الأدب الذي قال عنه أحد النقاد وهو يصف بعض أعمال تشيكوف، إنه يشعر الإنسان خلال قراءته بالمتعة.. والحزن!

فلعلي أستطيع أن ألخصها لك ذات يوم..

كما اصطحبت أيضاً مسرحية الكاتب الإيطالي الفائز بجائزة نوبل عام 1997، داريو فو، وهي مسرحية «موت فوضوي قضاءً وقدراً» من ترجمة الدكتور محمود علي مراد، وكتاب «قراءات ومشاهدات» للأديب الكبير الأستاذ ثروت أباظة، أما كتاب الخدمة المستمرة فقد كان كتاب «التكوين» الذي يضم سيرا ذاتية لعدد من المفكرين والأدباء بأقلامهم.

وكعادتي فلقد بدأت بقراءة الجديد، ورجعت كلما وجدت الفرصة إلى الكتاب القديم، وفي كل مرة أرجع فيها إلى هذا الكتاب الصديق أجدني أتوقف غالباً أمام نفس الصفحات التي استوقفتني فيه من قبل وأعيد قراءتها من جديد كأنما أذكر نفسي بها وأخشى أن تضيع من الذاكرة.

ففي الفصل الذي كتبه الناقد الكبير وأستاذ الأدب العربي الراحل شكرت عياد توقفت مرة أخرى أمام دروس الحياة التي علمتها له تجاربه وأمام قوله:

«تعلمت أولاً أن أثق برحمة الله وبلغت من هذه الثقة حداً يقترب من الوهم بأن الله يوليني أنا بالذات عناية خاصة، وما أنقذني من هذا الغرور إلا آيتان كريمتان: «فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ».. وأحسبني ما كنت أستطيع أن أمضي في الحياة لولا الشعور المبهم بحضور شخصي لله في حياتي، لكن ذلك الاعتقاد لو بلغ

حد الاعتقاد بأن الله أفردني باللطف من دون سائر خلقه لفسدت عليّ حياتي أيضا، وهكذا فقد تعلمت أن الاعتدال حتى في عاطفتي الدينية يجعلني أقرب إلى الله».

انتهى الدرس الأول الذي تعلمه د. شكري عياد.

فهل لاحظت في الآيتين الكريمتين أن الله سبحانه وتعالى قد وصف إنعامه على عبده بأنه ابتلاء له ليعرف كيف سيكون عمله إذا أنعم عليه، ووصف تقديره عليه رزقه، أي تحديده له أو تضييقه، بأنه أيضا ابتلاء ليرى كيف سيكون صبره، على أقداره.. وبالتالي فإن كلاً من النعمة والمحنة ابتلاء من رب العالمين ينبغي للمرء ألا يفقد جنانه أمامه!

أما الدرس الثاني الذي تعلمه فهو كما يقول: «وتعلمت ثانياً أن الصبر هو أس الفضائل كلها فمرتبته في الأخلاق كمرتبة الصلاة في العبادات.. «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ»، ولا أعني بالصبر مجرد احتمال الأذى، فذلك وجه واحد من وجوهه ولعله أقلها شأناً، أما أعظمها وأكرمها فالصبر على قضاء الحقوق والسعي في طريق الخير وانتظار حسن العاقبة وإن طال المدى».

فما من مرة قرأت فيها هذه السطور، إلا واستعدت في ذهني الحديث الشريف الذي يقول: حفت الجنة بالمكاره!

بمعنى أن الطريق إليها محفوف دائما بمغالبة النفس وكفها عن اتباع أهوائها وحملها على أن تؤمن بأن ما عند الله خير وأبقى.

أما أصعب الدروس التي تعلمها الراحل الكبير فلقد قال عنها: «وتعلمت ثالثا، وكان ذلك أصعب ما تعلمت من دروس، أن أشفق على من ظلمني، فما وقع عليَّ ظلم إلا وتأملت حال من ظلمني فوجدته أحق بالشفقة مني، فأجاهد وأنا أعمل لدفع الظلم عني ألا أبلغ في ذلك حد الانتقام».

وما أحوجنا نحن أيضا لأن نتعلم مثله كيف نشفق على من ظلمنا.. والحق أننا نستطيع أن نفعل ذلك إذا تأملنا أحواله وأدركنا هول الخراب النفسي الذي يعشش في أعماقه. ولسوف نراه غالباً أحق بالشفقة منا.. ولقد ندعو له بأن تحميه السماء من شر نفسه.. وتحمى ضحاياه الذين ينفث فيهم كراهيته لنفسه ولكل البشر من شروره.

ولأن الشيء بالشيء يذكر فكثيراً ما تذكرت أيضاً كلما قرأت هذه السطور كلمة الفيلسوف الألماني نيتشه التي يقول فيها: ليس بين الأحياء ولا بين الأموات من أكون على خلاف معه!

وهي كلمة حكيمة وتعني أنه إذا اختصمك أحد وبغى عليك وقطع مودتك لغير ذنب جنيته فلا تسمم روحك بكراهيته.. ولا تشغل نفسك بلعنه وذمه وانتقاد أخلاقياته. وذكر مثالبه، وإنما اعتبره ذرة من ذرات الكون الفسيح التي لا تدري بوجودها، فلا تذكره في أحاديثك قادحاً ولا مادحاً، ولا تسمع عنه مايسيء إليه.. أو ما يشرفه.. وإنما تجاهل وجوده تماماً في الحياة إلى أن يرجع عن غيه ويصلح أخطاءه معك أو يعتذر عنها.. واستخسر اللحظة العابرة التي يطوف خلالها بذهنك

وادخرها للتفكير فيمن تحبهم لاستعادة وجوههم ورنين أصواتهم في مخيلتك، فهؤلاء هم وحدهم من يستحقون أن يشغلوا فكرك ويملأوا خواطرك، ولا يستحق الآخرون لحظة واحدة من التفكير فيهم ولو بنية الإساءة إليهم أو الانتقام منهم.

أما الصفحة الأخرى التي أتوقف أمامها في هذا الكتاب الرقيق كثيراً، فهي التي ينقل فيها المفكر الدكتور أنور عبد الملك عن الأديبة الفرنسية سيمون دي بوفوار قولها: «سعيد هو ذلك الذي يستطيع أن ينظر إلى حقيقة حياته فيسعد بـها» وهي كلمة صادقة، إذ من منا يستطيع أن يتأمل بالفعل حقيقة حياته فيسعد بها ويرضى عنها؟

لقد كان الشاعر الشيلي بابلو نيرودا واحدا من هؤلاء الذين «نظروا» إلى حياتهم فسعدوا بها، وقال حين أحس باقتراب أجله: ـ أشهد أنني قد عشت!

يقصد أنه قد عاش الحياة التي أرادها وحقق الأهداف التي سعى وراءها ولم يبق إلا إنزال الستار!

فكم من البشر يستطيعون أن يقولوا ذلك؟

لقد أراد الشاعر الرومانسي الراحل محمود أبو الوفا أن يكتبوا على شاهد قبره حين يرحل عن الحياة هذا البيت من قصيدة له:

حسبي إذا الحب أضناني فمت هوى

إذ يذكرونـي قالـوا كـان إنسـانـا

وهو هدف جليل بالفعل أن يحيا الإنسان حياة شريفة هادفة تجعل الأحياء يتذكرونه بعد الرحيل فيقولون عنه: كان إنساناً! لكن «الجائزة» ليست سهلة المنال لكل من يطلبها، وإنما تتطلب الكثير والكثير من مغالبة النفس وردها عن أهوائها وعن إيذاء الغير، كما تتطلب تحري العدل والرحمة والترفع عن المباذل والدنيا في الحياة الشخصية.. فهل من راغب؟.

أما الدرس الأخير الذي أتوقف أمامه أيضاً فهو الذي تروي عنه أستاذة الأدب العربي الراحلة الدكتورة سهير القلماوي، في سيرتها الذاتية حين تقول: إنها كانت تطمح لأن تصبح طبيبة كأبيها الجراح، لكن تعليم الطب لم يكن متاحاً للإناث في مصر حين أنهت دراستها الثانوية، ولابد لكي تتعلمه من أن تسافر لدراسته في انجلترا، وكانت في السابعة عشرة من عمرها فلم يقبل والدها أن يسمح لها بالسفر قبل أن تبلغ سن الرشد، واضطرت هي للالتحاق بقسم اللغة العربية بالجامعة المصرية القديمة لقضاء السنوات الأربع الباقية على بلوغها سن الحادية والعشرين، وكانت قد تلقت تعليمها الثانوي في مدرسة أجنبية فأجادت الإنجليزية دون أن تجيد العربية بالقدر الكافي، ووجدت نفسها طالبة بقسم اللغة العربية بالجامعة فلم تحجم عن قبول التحدي، وانكبت على قراءة تفسير محمد فريد وجدي للقرآن بمساعدة أبيها وقراءة تفسير الزمخشري، وعانت الأمرين في فهم أسرار اللغة العربية وإجادتها، فكانت النتيجة أن تفوقت ونسيت حلم دراسة

الطب، وأصبحت أستاذة للأدب العربي ورئيسة لقسم اللغة العربية فيما بعد بكلية الآداب وأديبة مرموقة، وعن ذلك تقول:

أول وأكبر درس تعلمته هو ألا أيأس أبدا، وأن أتأقلم دائما مع ما فرض عليّ وليس منه بد، والخيرة كما يقولون فيما اختاره الله، **والمهم هو أنني لم أكن لأرضى إلا بأن أكون الأولى على الفرقة أو الثانية!**

ياخسارة.. انتهت المساحة دون أن أحدثك عن بقية الصفحات التي أعيد قراءتها في هذا الكتاب مراراً وتكراراً .. فلعل الفرصة تسنح لاستئناف هذا الحديث ذات يوم قريب.. وشكراً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح الباكر!

المثل الدارج يقول: «أخذوه من الدار للنار»! بمعنى أنهم فاجأوه بالاستدعاء لمهمة عاجلة، ولم يدعوا له الفرصة للتهيؤ لأدائها، فوجد نفسه على الفور في قلب المعركة بغيرتدرج بين حالة الاسترخاء التي كان عليها في بيته، وحالة الاستنفار التي قفز إلى أتونها دفعة واحدة!.

وأحسب أن هذا أيضاً كان حالي حين «أخذوني» من مطار أثينا إلى مقر رئاسة الجمهورية اليونانية لمقابلة رئيس الدولة، قبل أن أفتح حقيبة سفري وأبدل ملابسي أو أنثر بعض الماء على وجهي لأزيل عنه وعثاء السفر!

لكن هكذا قضى برنامج زيارتي الأخيرة لليونان الذي أعدته لي وزارة الإعلام اليونانية، وأبلغني به قبل السفر بيومين المستشار الصحفي بسفارة اليونان بالقاهرة الصديق قسطنطين باباس!

وحين فعل ذلك، لم أشا أن أفصح له عن هواجسي! وشكرته على ترتيبات الزيارة، واستعددت لمواجهة قدري الذي اعتدته لأكثر من عشرين عاماً كلما سافرت إلى أوروبا! فمعظم رحلات الطيران المتجهة إليها تقلع من القاهرة في الصباح الباكر، وظروف عملي تضطرني كلما اعتزمت السفر أن أحتجب في البيت اليوم السابق له لإنهاء واجباتي الصحفية قبل الرحيل، فتكون النتيجة دائماً هي أن أركب الطائرة في الصباح الباكر، ولما يتح لي أن أغفو لأكثر من ساعة قبل السفر.. وفي أحيان كثيرة أخرج إلى المطار بلا غفوة نوم واحدة، معتمداً على أن يومي الأول من الرحلة يكون غالباً خالياً من أية ارتباطات في النهار، فأعوض فيه ما فاتني من نوم.

فما العمل هذه المرة.. وبرنامج زيارتي يقول إن الطائرة ستصل إلى أثينا في الحادية عشرة صباحا، وإن مندوبة من وزارة الإعلام سوف تصطحبني من المطار إلى الفندق لأضع حقيبتي فيه، وأتوجه معها إلى رئاسة الجمهورية. هكذا. «من المطار إلى النار».؟!

«قررت» أن أبذل غاية جهدي هذه المرة للانتهاء من واجباتي الصحفية في موعد يسمح لي باستراق ساعتين على الأقل من النوم - لكيلا تفاجئني غيبوبة النوم خلال لقائي برئيس جمهورية اليونان، فيحملني رجال المراسم من مكتبه قبل أن يزعجه «شخيري»!

وجلست إلى مكتبي في البيت، وبدأت الكتابة بإصرار وجدية، وكلما استشعرت بعض التراخي أو الرغبة في الراحة استدعيت من الذاكرة البعيدة قصة الصبي الصيني التي قرأناها في كتاب المطالعة القديم بالمدرسة الابتدائية، وكثيراً ما عيرونا بضعف إرادتنا وقلة جلدنا على المذاكرة بالمقارنة به.

فقد تفتق ذهنه عن فكرة مبتكرة لكي يواصل المذاكرة خلال الليل بغير أن يغلبه النوم.. فربط خصلة من شعره الطويل بخيط في مسمار في الحائط الذي يجلس

أمامه.. وانهمك في الدرس.. وكلما غلبه النوم وتدلت رأسه على صدره، رفعها الخيط المشدود للمسمار، وأعاده إلى التنبه ومواصلة الدرس!

فرحت أغالب أنا أيضاً التعب، وكلما مالت رأسي على كتفي، تذكرت موعد رئيس الجمهورية اليونانية في اليوم التالي، وما ينبغي لي أن أكون عليه من حضور الذهن وتنبه الوعى خلال لقائي به، فأستعيد حماسي وأواصل الكتابة بلا كلل!.

وبالرغم من كل ذلك فلم أستطع الانتهاء من عملي قبل الثالثة صباحا، ولم تسمح لي حالة التوتر واشتعال الذهن التي تصاحبني خلال الكتابة وبعدها بأن أقتنص لحظة واحدة من النوم الخالص.. ونهضت من فراشي - ولا أقول من نومي - بعد ليلة بيضاء أخرى بلا نوم، لأركب الطائرة إلى أثينا.. وفي مطارها وجدت في انتظاري السيدة «خريسولا» مندوبة وزارة الإعلام، والزميل «عبد العظيم درويش» مدير مكتب الأهرام هناك.. ولم تدع لي «خريسولا» النشيطة أية فرصة لالتقاط الأنفاس، وما إن وصلنا إلى فندق «جراند بريطانيا» الذي سأقيم به حتى أودعت حقيبتي المغلقة، وسرت إلى جوارها على الأقدام إلى مقر رئاسة الجمهورية.. فالمسافة بين الفندق والمقر بسيطة بمقاييس «خريسولا»!.. وقطعها على الأقدام يوفر نصف الوقت عما لو ركبنا سيارة إليها وسط زحام أثينا. التي تعد من أكثر العواصم الأوروبية ازدحاماً بحركة المرور، حتى لقد خصصوا يوماً لسير العربات ذات الأرقام الفردية، ويوماً آخر لسير العربات ذات الأرقام الزوجية.. فكانت النتيجة أن أصبحت معظم الأسر المتوسطة فيها تملك سيارتين، أرقام إحداهما زوجية، والأخرى فردية! كما انتشرت فيها الدراجات البخارية بكثرة عجيبة لم أشاهدها في أية عاصمة أوروبية أخرى، لأنه مسموح لها بالحركة في شوارع العاصمة بغض النظر عن أرقامها!.

وفي شارع هادئ تظلله أشجار اللارنج بثمارها الصفراء التي تتساقط بكثرة على الأرض، ويؤول مصيرها إلى صناديق القمامة، لأن اليونانيين لا يأكلونها دخلت مع «خريسولا» مقر رئاسة الجمهورية من باب خلفي لا يقف عليه سوى جندي واحد.. وبعد حوار قصير بينها وبينه سمح لنا بالدخول بغير الاطلاع على هويتي.. ولا المرور عبر بوابة للكشف الأسلحة والمعادن.. ولا إجراءات أمن معقدة! واستقبلني أحد رجال المراسم مبتسماً، وقادني لمكتب رئيس الجمهورية السيد «كونستانتينوس ستيفانوبولس» وهو يذكرني بما سبق أن لفتت خريسولا انتباهي إليه، وهو أن لقائي مع رئيس الجمهورية ليس لإجراء حوار معه للنشر، لأنه لا يجري حوارات صحفية أبداً، وإنما للتحية والترحيب وتبادل الرأي .. ويحق لي أن «أشير» إلى مادار بيننا من مناقشات، ولكن دون أن أنسب إليه أية تصريحات مباشرة!

ودخلت إلى مكتب رئيس الجمهورية اليونانية، وتقدمت منه مصافحاً ومحيياً.. ولاحظت خلال المناقشة معه عمق ثقافته وسماحة طبعه، وجاذبيته السياسية التي أهلته لأن يجمع على ترشيحه لدورة رئاسية جديدة الحزب الحاكم وحزب المعارضة في نفس الوقت.. ربما لأول مرة في تاريخ اليونان الحديث.. وهو ما تحقق بالفعل عقب زيارتي له بأيام.. ففاز في انتخابات الدورة الثانية له من أول

انتخاب، وبغير إعادة المنافسين.. ودار الحديث بيننا عن مصر والموقف الدولي والعلاقة بين اليونان وتركيا، وانبهاره خلال زيارتيه السابقتين لمصر بالأقصر وآثار وادي الملوك ومعابد الكرنك.. واستغرقت المقابلة على غير المتوقع في مقابلات المجاملة المماثلة - 45 دقيقة.. وغادرت مكتبه وأنا أشكر «الصبي الصيني» على ابتكاره القديم الذي نفذته مع نفسي خلال المقابلة.. معنوياً وليس شكلياً.. ومررت خلال عودتي للفندق مشياً على الأقدام مرة أخرى مع «خريسولا» النشيطة - مقر رئاسة الوزارة اليونانية، وشاهدت تجمع رجال الإعلام ومحطات التليفزيون بكاميراتهم عند مدخلها في انتظار خروج رئيس الوزراء «سيميتس كونستانتينوس» ليحاصروه بالأسئلة قبل أن يركب سيارته.. ولم ألحظ مثل ذلك عند مغادرتي لمقر رئاسة الجمهورية الذي لا يقيم فيه رئيس الدولة على عكس المفروض حيث يفضل الرجل الإقامة في شقة بعمارة مزدحمة بالسكان بإحدى ضواحي أثينا، لايقف على بابها سوى جندي واحد.. وهو نفس الحال الذي شاهدته حين مررت بعد ذلك بعمارة سكنية أخرى في قلب أثينا، فلقد رأيت أمامها جندياً واحداً، وقيل لي إن رئيس الوزراء يقيم بهذه العمارة مع غيره من السكان! فالأمور في هذه الناحية الأمنية أكثر بساطة في اليونان منها في دول أخرى.. ولم أعجب لعدم تواجد رجال الإعلام أمام مقر رئاسة الجمهورية، في حين يتزاحمون أمام مقر رئاسة الوزارة.. لأن السلطة الفعلية في اليونان في يد رئيس الوزارة كما هو الحال في معظم الديمقراطيات الغربية -- ما عدا فرنسا.

وحين وصلت إلى الفندق وتركتني «خريسولا» على وعد باللقاء في صباح اليوم التالي لتصاحبني إلى احتفال افتتاح أول مترو للأنفاق في أثينا حللت خصلة شعري المربوطة إلى مسمار الوعي والإرادة، ودخلت فراشي، عازفاً رغم الجوع الشديد عن تناول الغداء واستسلمت لنوم ثقيل.. وبعد ثلاث ساعات تنبهت من نومي، وبدأت زيارتي الحقيقية لليونان!

اليونان - كم مرة جئت إليها من قبل؟!

وكم مرة خيل إليّ حين أتمشى في أثينا أنني قد أصادف في شوارعها الفيلسوف «سقراط» يمشي بين تلاميذه، وهو يمارس أسلوبه الفريد الذي عرف بالتهكم السقراطي، ومن خلاله يصطنع الجهل مع من يحاوره، ويحاول إشعاره بأنه أقل منه ذكاء.. إلى أن تكشف المحاورة للشخص الآخر فساد منطقه.. أو وهو يناقش كل من يقابله في الطريق ويرى أنه يتعلم بهذه الطريقة من الآخرين.. لأن «أشجار الريف ليس لديها ما تعلمني إياه!».. كما كان يقول! وإنما البشر هم الذين يمكن أن يتعلم منهم ويعلمهم!

بل.. وكم مرة توقعت خلال تجوالي في أزقة حي بلاكا وشوارع كولانالي أنني قد ألتقي بأحد هؤلاء اليونانيين الطيبين الذين عرفتهم خلال الصبا في مدينتي الصغيرة دسوق، وقد كانوا يملكون فيها المقاهي والمطاعم والفنادق ثم رجعوا إلى بلادهم مع بداية السبعينيات!

اليونان دولة متوسطية.. يبلغ عدد سكانها 10 ملايين و 66 ألف نسمة فقط وقد أشار رئيس الجمهورية اليونانية في حديثي معه إلى أن إحدى أهم مشاكل بلاده الآن هي ضعف معدل المواليد، الذي لا يزيد عن1.1% ، على عكس الحال «عندكم»!

وهي تتكون من أكثر 8 آلاف جزيرة، ليس معموراً منها سوى 101 جزيرة فقط. والبقية جزر غير آهلة بالسكان وصخرية، وتستطيع - إذا أردت - أن تشتري واحدة منها وتدفع ثمنها للحكومة، كما فعل من قبل المليونير اليوناني الشهير «أوناسيس».. ومع ذلك فهي تستقبل كل سنة حوالي 15 مليون من السياح الأوروبيين الذي تستهويهم جزرها وشواطئها ونمط الحياة المختلف فيها عن بقية دول أوروبا.

و «التافرنا» - أو المطعم اليوناني - هو رمز الحياة في اليونان.. ففيها أكبر عدد يمكن تصوره - بالمقارنة بعدد السكان من المطاعم والمقاهي والبارات.. ومقاهي أثينا عامرة دائماً بالرواد في عز النهار وخلال ساعات العمل. واليوناني يخرج من عمله إلى البيت فيتناول طعام الغداء.. وينام بعض الوقت، ثم يخرج من بيته في المساء إلى «البار» أو «التافرنا» كل ليلة تقريباً.. وهو يعشق السهر، ويتأخر عن موعد العمل في الصباح في كثير من الأحيان، لأنهم من عشاق الحياة والطعام والشراب على حساب أي شيء آخر! لكن الأسرة اليونانية مازالت شديدة الترابط وتنفر من فكرة استقلال الأبناء بحياتهم في مطلع الشباب.. كما يفعلون في دول أوروبية أخرى.. ومازال كثير من قيمها العائلية شبيها بالقيم الشرقية في بعض الوجوه.. غير أنك تشعر بالرغم من ذلك وبالرغم من شهرة اليونان كدولة سياحية كبيرة بانغلاق اليونانيين على أنفسهم، أكثر مما تشعر بذلك بالنسبة لشعوب أوروبية أخرى.. كما تلمس بسهولة أنهم رغم تمتعهم بالحياة بكل السبل من أكثر شعوب أوروبا تردداً على الكنيسة.

وفي صباح اليوم التالي شهدت مع «خريسولا» حفل افتتاح مترو الأنفاق بأثينا.. و «سمعت» - ولا أقول فهمت! - خطب رئيس الوزراء والوزراء التي توالت باللغة اليونانية، قبل أن يختتمها رئيس الجمهورية بخطبة ألهبت حماس الجمهور وتصفيقه.. حين تحدث عن الإرادة اليونانية التي نفذت مشروع مترو الأنفاق بالرغم مما قيل من إنه أكبر من أن تنفذه دولة كاليونان.. وتأكدت لي فكرتي عن جاذبيته السياسية، وقدرته على إثارة إحساس المواطنين بالكرامة الوطنية.. أما «خريسولا» فإنها لم تصدقني في البداية حين قلت لها في طريق العودة من الحفل: إن لدينا في القاهرة «مترو» للأنفاق منذ حوالي 15 عاماً، وإنه قد أصبحت له الآن ثلاثة خطوط!.

فلقد كان احتفالهم بمترو الأنفاق احتفالاً شعبياً صاخباً كأنه مناسبة وطنية كبرى.

ولقد مضت أيام الزيارة القصيرة.. في اللقاءات المماثلة، واستطلاع الحياة في العاصمة اليونانية.. وإعادة زيارة المعالم الأثرية الشهيرة، كاستاد أثينا الذي أقيمت فيه أول دورة أوليمبية في العصر الحديث، وزيارة معبد «دلفي» القديم

الذي كانت تعلوه العبارة الشهيرة التي اتخذها سقراط شعارا لنفسه وهي: «اعرف نفسك بنفسك!».. ولقد سبقت لى محاولة زيارته قبل 5 سنوات، وسافرت 350 كيلو متراً من أثينا إليه - فوجدت الطريق الصاعد إلى المعبد مغلقاً بسبب إضراب العاملين بقطاع الآثار- واليونان بالمناسبة من أكثر الدول الأوروبية تعاملاً مع الإضرابات والمسيرات السلمية المطالبة بمطالب عمالية.. فصممت هذه المرة على زيارته، ونظمت لي وزارة الإعلام اليونانية رحلة إليه مع فوج سياحي صغير.. وقاومت تصلب المفاصل من أثر قلة الحركة والمشي، وصعدت مع الصاعدين إلى قمة الربوة التي يقع المعبد فوقها.. واستمعت إلى شرح المرشدة، وخيالي يسرح إلى قمة جبل الأوليمب التي كانت مقام الآلهة اليونانية، وميدان معابثاتهم لبعضهم البعض وللبشر في الأساطير القديمة!

وشكرت للصبي الصيني إرادته التي ألهمتني الإصرار على صعود ربوة معبد دلفي العالية، بالرغم من إجهادها لي.. ولم أعتب على هذه الإرادة عجزها عن أن تسعفني بنفس القدر لكي أصعد هضبة معبد الأكروبول ودرجاتها التي تبلغ 110 درجات.. واستسلمت لحقائق الزمن واكتفيت من الزيارة هذه المرة بالجلوس بمقهى في سفح الأكروبول.. وتأمل أطلال المعبد من بعيد، واسترجاع ذكرياتي عنه حين صعدت إليه نفس هذه الدرجات العالية في عام 1978 وتجرعت القهوة اليونانية التي تتسم بخفة تركيزها في المقهى منتظراً عودة الفوج الذي صاحبته وصعد نشطاؤه إلى المعبد، لنعود معاً بالأتوبيس السياحي إلى وسط المدينة. وتعلمت من درس زيارتي السابقة لليونان منذ خمس سنوات ألا أخطئ وأطلب من جارسون المقهى القهوة «التركية»، لكيلا أتلقى منه نظرة غضب صامتة لمجرد الإشارة إلى تركيا في الحديث.. ولو على سبيل القهوة!

فالعداء التاريخي بين البلدين قديم.. وإن كانت العلاقات السياسية بينهما. قد بدأت تتجه الآن إلى التحسن - كما قال لي الرئيس اليوناني في حواري معه - وما أجمل أن يجيء يوم - ولو في أحلام اليقظة!- يحل فيه السلام والمحبة بين جميع البشر.. بغير استثناء!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صور من حياتهم:الطيور الخرساء!

إلام تدوم هذه الحال؟

إن كل سفينة تؤوب في النهاية إلى مرفأ آمن يحميها من العواصف والأنواء.. فمتى تؤوب سفينته إلى شاطئ الأمان؟ ولماذا تحكم عليه أقداره بأن يحيا دائماً في مهب الرياح؟ وهل تكون هذه اللافتة الكرتونية الصغيرة التي لمحها على باب عمارة قريبة في طريق العودة إلى البيت بداية الخلاص؟

إنها لافتة متواضعة مكتوب عليها بخط نسائي: شقة 120 متراً في الدور الثاني للبيع أو الإيجار بالأثاث، تساءل والمصعد يرتقي به الأدوار إلى مسكنه في الدور الخامس.. ترى ماذا دفع الأسرة مالكة هذه الشقة لعرضها للبيع أو التأجير؟!.. هل هو نداء الهجرة إلى الخارج أم ترى أنها قد اشترت شقة أكبر وأجمل في حي أكثر رقيًا؟

إن مواصفاتها المبدئية مثالية بالنسبة إليه.. فهي في نفس الحي الذي نشأ فيه وشهد أيام سعادته وشقائه.. وفي نفس الشارع الذي يقع فيه مسكنه الذي ظن حين اشتراه قبل عشرين عاماً أنه سيكون عش هنائه وسعادته.. وهكذا يحقق المعادلة الصعبة التي لم يجد لمشكلته حلاً سواها.. وهي أن يكون «قريباً» و «بعيداً» في نفس الوقت، قريبا من الابنة الغالية التي لولاها ما احتمل الحياة خلال السنوات الماضية.. وبعيداً عن مصدر النكد الدائم الذي يجد نفسه متهماً أمامها طوال الوقت بما يعرفه أو لا يعرفه من أخطاء... متهماً بأنه قد «فعل» ومتهماً بأنه «لم يفعل» بأنه «قال» وبأنه «لم يقل».. بأنه قد جاء.. وبأنه لم يجيء، وأياً كان الاختيار فالنتيجة واحدة وهي أن يكون دائماً في حالة دفاع عن النفس.. وحالة الاسترضاء والاعتذار عن أخطاء وخطايا لا نهاية لها، وحبة القلب الصغيرة ترقب وتفهم كل شيء برغم سنواتها الخمس عشرة وتلوم أمها بنظراتها أمامه وتنفجر فيها في غيابه كما سمع من بعض أقاربه.. وتمسح بيدها على رأسه حين تراه جالساً في شرفة المسكن ساهماً، وتقول له من حين لآخر في عطف مكتوم «معلهش يا بابا»، فيفتعل المرح معها ويقبلها ويسألها عن صديقاتها ويستمتع بسماع أخبارهن واحدة بعد الأخرى ويتعاطف على البعد مع «رنا» يتيمة الأم التي تستذلها زوجة أبيها وتسيء معاملتها فلا تجد سوى أحضان الأب العاجز عن مواساتها بغير الدمع وبغير الرجاء لها أن تحتمل حياتها لكي تظل السفينة طافية فوق الماء حرصاً على إخوتها الصغار من زوجته.

ويشعر بحب الدنيا كله على البعد أيضاً للسيدة فضيلة «أم» صديقتها الأخرى «نشوى» وماهي بأمها وإنما هي زوجة أبيها بعد أمها الراحلة أيضاً، لكن الله قد غرس الرحمة بابنة زوجها في قلبها فكانت أماً حقيقية لها، ولم تشعرها لحظة واحدة بأي تمييز بينها وبين إخوتها غير الأشقاء، فلم يكن عجيباً أن تشعر نشوى تجاهها بأنبل المشاعر.. فلا تشير إليها في الحديث العابر سوى بعبارة «ماما» الصادرة من القلب.

ويعجب بجمع والدة «هبة» بين الحزم معها والعطف عليها والعناية الشديدة بكل أمورها.. فإذا سئلت عن أسباب شدتها مع ابنتها الحبيبة وهي مثال للالتزام الديني والتفوق الدراسي، أجابت باسمة بأنها تعوض بذلك حنو أبيها الزائد عليها خوفاً عليها من أن يفسدها التدليل!

وكم يضحك من أعماق قلبه على طرائف «بسمة» المعروفة بين زميلاتها بخفة روحها وابتسامتها الدائمة وكراهيتها للأحزان والهموم، حتى استحقت عن جدارة مايقوله عنها مدرس اللغة العربية بمدرستهن الثانوية من أنها «اسم على مسمى»!

وكم وجد أيضاً في هذا التفاهم العميق بينه وبين ابنته الحبيبة بعض السلوى وبعض العزاء.. وكم تساءل متحسراً: ولماذا لم تنشأ مثل هذه الصداقة الحميمة بينه وبين شريكته في الحياة وقد كانا ذات يوم حكاية تُحكى بين زملاء الكلية؟ وأين اختفت تلك الفتاة الرقيقة الباسمة التي تشارب معها كؤوس الحب في العامين الأخيرين من الدراسة الجامعية وتوجا قصتهما معاً بالزواج؟ وحلت محلها تلك السيدة العبوس المتجهمة على الدوام؟ وكيف تسللت الكآبة إلى روحها عاماً بعد عام حتى لم يعد يذكر من ملامح الوجه الباسم القديم إلا طيفا كأطياف الذكرى؟ إنها تقول إنه هو الذي تغير.. ولم يعد العاشق القديم الذي لا يألو جهداً لإسعاد محبوبته.. وهو يرد على «الاتهام» بأن إدمان النكد واختلاق أسبابه لأوهن الأعذار، وانشغالها الدائم بأمور الحياة المادية على حساب علاقتها به، واستسهالها المستمر لإلقاء اللوم عليه في كل الأشياء قد أخرس طيور الحب في قلبه، فلم تعد تغرد أو تعبر عن نفسها، لكن الطيور مازالت على قيد الحياة وإن كانت الآن خرساء، وعليها أن تبذل بعض الجهد لكي تستنطقها من جديد قبل أن تفقد القدرة نهائياً على البوح وهي لا تبذل أي جهد، سوى في المجال الوحيد الذي لا تجيد سواه وهو الجفاء والخصام والاتهام الناطق أو الصامت له.. وانتظار أن تجيء الخطوة الأولى دائماً من جانبه، فحتام يستطيع احتمال حياته على هذا النحو؟

وهل يستطيع حبه لابنته وحده أن يحمي عقداً لا يبذل طرفاه الجهد الكافي للمحافظة عليه من الانفراط؟

لقد حل الجفاء الصامت بينهما منذ أمد بعيد.. ولم يعد يحكم تصرفاته معها إلا رغبته في اتقاء اللوم والحساب.. أما الحب فقد توارى تحت تراكمات الجفاء.. فهل تكون هذه اللافتة الكرتونية الصغيرة هي الأمل والخلاص؟ وهل تتفهم الابنة الغالية دوافعه لما سيفعل وتغفره له؟

لقد فكر في هذا «الحل» أكثر من مرة.. ولم يقعده عن الإقدام عليه سوى رغبته في أي يكون قريباً من ابنته في السنوات الحرجة من عمرها. وقال له صديقه الطبيب النفسي المعروف بأفكاره المتحررة من القيود والأغلال التي يقيد هو نفسه بها: إن «أباً سعيداً» في حياته الشخصية أفضل من الناحية المعنوية لابنته المراهقة من أب مهموم على الدوام وليس قادراً على الابتهاج بالحياة.

وشجعه ذات يوم على الانفصال عن زوجته لفترة مؤقتة عسى أن يشعرها ذلك بالطريق المسدود الذي تدفع حياتها الزوجيه إليه.. لكنه لم يتحمس للنصيحة، ولم يستطع أن يتخلى عن قناعته بوجوب التضحية بكل الاعتبارات من أجل سعادة الأبناء.. وقال لصديقه في ذلك اليوم: لا أريد أن يأتي خاطب ذات يوم قريب لطلب يد ابنتي فيجدني منفصلاً عن أمها بالطلاق.

وهكذا واصلت السفينة إبحارها الصعب في بحر من القلاقل والأنواء.

لكن يبدو أنه لابد مما ليس منه بد..

فليكن الحل الوسط إذن هو أن يصنع لنفسه حياة أخرى أقل عناء من حياته الحالية مع احتفاظه بكيان الأسرة أملاً في تحسن الأحوال، خاصة وأن زوجته لا ترغب في الطلاق، ولا تقدر معنوياً على تحمل تبعاته. ولقد صارحها منذ فترة قريبة بعزمه على الانتقال إلى بيت شقيقته الأرملة لبعض الوقت.. فصرخت فيه محذرة من هذا الحل الذي يثير شماتة أخته الأرملة التي تتوهم أنها لا تحمل لها الود لكثرة لومها لها على جفائها لأخيها.

فأجل الفكرة بعض الوقت.. إلى أن لمح هذه اللافتة الصغيرة في طريق عودته للبيت اليوم.

فليكن الحل إذن هو الانفصال المكتوم عن الجميع حتى عن أقرب الأهل إليه، وليأمل في أن تكون الشروط المادية لهذه الشقة القريبة في حدود احتماله لكي يواصل حياته السابقة كما هي، فيرجع للبيت في موعد الغداء، ويقضي بعض الوقت مع ابنته، ويتابع دراستها وشئونها ويسمع لها ويتحدث إليها.. ويلبي مطالب الأسرة، ثم يهجع إلى واحته الجديدة في المساء فيخلو إلى نفسه وأفكاره وآماله في الحياة وأحلام يقظته بالسعادة التي لا تفارقه هذه الأيام..

وبعد الأصيل ارتدى ملابسه في صمت وهو يفكر كيف سيكون وقع النبأ على الابنة الغالية حين تعرف به.. أما «الأخرى» فإنه يعرف جيداً أنها ستبدي الاستهانة وعدم الاكتراث.. فما إن يدير ظهره لها ويغادرها حتى تنفجر في البكاء والولولة وتتهمه بالجحود وانعدام الوفاء والنكران.. وقطع عليه أفكاره صوتها وهي: تسأله في نبرة تجمع بين الجفاء والفضول في نفس الوقت: إلى أين في مثل هذه الساعة؟

فتفادى النظر إليها، وأجاب وهو يسرع الخطى إلى باب المسكن قبل أن تخرج ابنته من الحمام وتتساءل عن أسباب خروجه المفاجئ: مشوار قريب..

ثم غادر المسكن متجهاً على الأقدام إلى العمارة القريبة وهو يدعو ربه أن يترفق به أصحاب الشقة المعروضة للبيع أو الإيجار وألا يحبطوا بمطالبهم المادية.. حلمه المتواضع.. في راحة البال!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحب من النظرة الأولى!

يا إلهي .. لماذا لا أشعر بأي غربة وأنا أتجول في شوارع هذه المدينة؟

إنني أزورها لأول مرة.. ومع ذلك فإني أشعر بأنني قد جئت إليها من قبل مراراً وتسكعت في شوارعها وحواريها طويلاً حتى ألفتها وألفتني؟

هل هناك حقاً «حب من النظرة الأولى» للأماكن، كما هو الحال بالنسبة للأشخاص على حد زعم البعض؟

وإذا كان «حب النظرة الأولى هو قرين الجنون»، لأنه يتناقض مع حقيقة أن الحب وليد تفاعل بطيء للمشاعر والأحاسيس الطيبة تجاه أحد الأشخاص، كما يقول لنا مؤلف القصة الأمريكية القديمة «سراب الحب»، فماذا يمكن أن نسميه بالنسبة للأماكن؟

ألسنا ندخل مكانا لأول مرة في حياتنا فيراودنا شعور مبهم غامض بأنا قد زرناه ورأيناه من قبل؟ وألا نشعر بالألفة تجاه مكان نراه لأول مرة.. ونشعر بالضيق والاختناق في مكان آخر للوهلة الأولى؟

إن بعض الشعوب الشرقية التي تؤمن بتناسخ الأرواح تفسر إحساس المرء بأنه قد رأى مكاناً يزوره لأول مرة من قبل، بأنه «دليل» على أنه زاره وعاش فيه قبل ذلك في حياة سابقة على حياته الحالية.

لكننا لا نؤمن بتناسخ الأرواح، ولا بحلول الروح بعد وفاة الجسد في جسم آخر، فمن أين يجيئنا إذن هذا الشعور الغامض؟

لقد أحسست به حين رأيت دمشق لأول مرة، وتجولت في شوارعها وجلست في مقاهيها الشعبية، وتنقلت بين أرجائها.

وتذكرت وأنا أتجول في الشوارع بألفة عجيبة، أن هناك موعداً بيني وبين هذه المدينة قد تأخر تنفيذه ثلاثين عاماً أو تزيد!

فلقد كُلفت ذات يوم بمهمة صحفية في دمشق.. وحصلت على تأشيرة الخروج حين كان الحصول عليها في مصر في ذلك الوقت يتطلب «نفوذاً» وتوصيات خطيرة، وأنهيت إجراءات السفر وأعددت حقيبتي وأوراقي، وحملت كل ذلك وتوجهت إلى «الأهرام»، لأتلقى من رئيسي المباشر في ذلك الحين آخر توجيهات العمل، فما أن دخلت عليه وجواز سفري وتذكرة الطائرة في يدي حتى فوجئت به يطلب مني إعادة حقيبة الملابس إلى البيت، لأن المهمة قد ألغيت فجأة!

ولأنني إنسان قدري بطبيعتي.. فلقد تقبلت الأمر ببساطة، واستدرت لأنصرف.. فتصور أنني حزين لإلغاء السفر في اللحظة الأخيرة.. وطيب خاطري وحاول أن يهون عليّ الأمر بقوله إنه سيعوضني قريباً عن المهمة الملغاة بمهمة أخرى في مكان أفضل، وفوجئ بي أقول له، بلا أي أثر للضيق في نفسي: ومن أدراني أنني كنت سأسعد بهذه الرحلة أو سأرجع منها سالماً؟

وانصرفت إلى عملي مبتهجا وكأنني قد فزت بجائزة غير متوقعة!

ولاعجب في ذلك فلقد اعتدت دائماً ألا آسى على شيء فاتني، مؤمناً حسن اختيار الله سبحانه وتعالى لي.. وعند السفر على وجه التحديد فإنني لا أكتئب إذا فاتني موعد قطار أو طائرة أو سيارة، ولربما شعرت حينذاك بما يشبه الارتياح الباطني لعدم إدراكي له.. وكأنما قد نجوت من شيء مجهول كان يترصدني ولو لم يكن الأمر كذلك ليسره لي.

لكني لم أتصور بالرغم من ذلك أن تتوالى كل هذه السنين التي سافرت خلالها إلى أركان الأرض الأربعة، بغير أن تتيح لى الظروف القيام بهذه الرحلة المؤجلة إلى دمشق.. وإتمام التعارف المعلق بيني وبينها!

وحين اتصل بي المستشار الإعلامي للسفارة السورية في القاهرة، ليبلغني بدعوة وزير الإعلام السوري لزيارة سوريا وحضور الاحتفال بالذكرى الأولى لرحيل حافظ الأسد، وجدتني مهيئاً نفسياً لتلبية الدعوة ومستعداً لها.. وفي أرض مطار القاهرة التقيت به لأول مرة وبالسفير السوري ثم بدأت الرحلة.. ساعة وعشرون دقيقة فقط وهبطت الطائرة في مطار اللاذقية بشمال سوريا.. المطار صغير.. وهناك طابور من السيارات السوداء ينتظر المدعوين، وفي صالة كبار الزوار استرحنا لفترة قصيرة تعرفنا خلالها على المستقبلين، ثم توجه الركب إلى فندق ميريديان.

في الطريق إلى المدينة ألحظ الخضرة في كل مكان.. وأشعر بأنني لم أغادر بعد مصر.. فالوجوه مألوفة لي.. واللهجة محببة ومفهومة.. وطبيعة الحياة والشوارع متشابهة. في غرفتي بالفندق كان أول مافعلته هو أن اتصلت بصديقي ناجي المهندس المصرى الذي يعمل مع شركة يابانية تنفذ مشروعا لتصنيع القمامة في شمال سوريا، وكان حين تلقى اتصالي على تليفونه المحمول في مدينة حمص على بعد نحو 160 كيلو مترا من اللاذقية، فلم تمض ساعتان حتى كان يطرق عليّ باب الغرفة ونلتقي بعد الغياب، ولم تمض دقائق أخرى حتى كنا نتجول في شوارع المدينة الساحلية التي تشبه الإسكندرية إلى حد بعيد ونشرب الشاي «الخمير»، أي المغلي عدة مرات، في مقهى شعبي بالمدينة ونلتهم طبق فتة الحمص الشهي الذي تعرفت عليه لأول مرة في أحد المطاعم المطلة على البحر، ويطول بنا السهر في مسكنه مع زميل سوري له حتى قرب الفجر.

ثم يتكرر اللقاء في اليوم التالي.. ويمضي الوقت سريعاً، ويجيء موعد الاحتفال في قرية القرداحة التي تبعد نحو 26 كيلو متراً عن اللاذقية وهي مسقط رأس الرئيس السوري الراحل.. ومثواه الأخير.. ونشهد الاحتفال في الساحة المجاورة للضريح، ويستغرق 4 ساعات تتوالى خلالها كلمات التأبين.. وأرى في المكان وجوهاً مصرية وعربية عديدة.. وأجدني أمام الشيخ الشاب الذي تتصدر صورته نشرات الأخبار في كثير من الأحداث الشيخ حسن نصر الله أمين عام حزب الله، فأصافحه محيياً، وألمس سماحته وتواضعه وجاذبيته الشخصية. وأشعر بالرغبة في تحية كثيرين، لكن ظروف المكان ووجود رئيس الدولة وأركان الحكم

واعتبارات الأمن تقيد الحركة إلى حد كبير، ونركب الطائرة في يوم حار إلى دمشق لأتمم الموعد القديم بيني وبينها.. فلا تمضي ساعة وعشر دقائق حتى نكون قد هبطنا في عاصمة الأمويين التي كثيراً ما رسمت لها في مخيلتي صورا موشاة بنقوش التاريخ وحكاياته..

إنني أعرف الأماكن عادة برموزها التاريخية والدينية والفكرية، وحين أزور بلداً قرأت طويلاً عنه أو قرأت بعض أعمال مفكريه وفلاسفته وأدبائه.. أو تذوقت بعض أعمال فنانيه المشاهير، فإنه يخيل إليّ أنني سألتقي بهؤلاء الأشخاص التاريخيين في شوارعه، فإذا زرت سالسبورج في النمسا خيل إليّ أنني سألتقي مصادفة بالموسيقار موزار في أحد الشوارع.. وإذا زرت أمستردام خيل إليّ أنني سألتقي بالفنان رمبرانت في بيته المطل على إحدى القنوات البحرية العديدة هناك، وإذا زرت ميونيخ خيل إليّ أنني سألتقي بشاعر الألمان الأعظم جوته بعبقريته المتوهجة وشعره الأبيض وبجواره الفتاة الجميلة التي أغرمت به في سنواته الأخيرة وكرست حياتها له، وإذا زرت ستراتفورد في بريطانيا خيل إليّ أننيّ سأرى شاعر الإنجليزية الأكبر شكسبير.. فمن من الشخصيات التاريخية والفكرية التي أرغب في أن «أصادفها» في شوارع دمشق حين أزورها لأول مرة؟

مؤكد أنه الخليفة العادل التقي الورع جوهرة القصر الأموي وخامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأرضاه، فلقد تمنيت أن ألقاه لأطمئنه على أن الله سبحانه وتعالى قد حفظ من بعده أبناءه، وأورثهم خير الميراث عنه - وأصل الحكاية أن مسلمة بن عبد الملك قد أوصى عمر - وهو في فراش موته - بأن يوصي لأبنائه بمال أو يوصي بمن يرعاهم بعده، فرفض ذلك مفضلاً أن يتركهم في رعاية رب عادل خشيه عمر حق خشيته طيلة عمره، ورق قلبه لأبنائه الذين سيتركهم بلا مال وهو الذي تنازل لبيت مال المسلمين عن ثروته الطائلة، فقال بأبي وأمي من خلفتهم بعدي فقراء!

ثم مات عمر وسقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية وبويع المنصور خليفة ودخل عليه رجل من سادة العرب يهنئه فسأله أن يعظه بشيء رآه بنفسه، فقال له: رأيت عمر بن عبد العزيز قد مات وخلف وراءه أحد عشر ولداً، وترك ثمانية عشر ديناراً، ومات هشام بن عبد الملك فكان نصيب إحدى زوجاته الأربع من المال دون الضياع والقصور ثمانين ألفا من الدينارات، فوالله يا أمير المؤمنين إني قد رأيت في يوم واحد ولداً من ولد عمر بن عبد العزيز يحمل مائة فرس في سبيل الله «أي يتبرع بها للجهاد»، وولداً من ولد هشام يسأل الناس في الطريق!

ولو سمحت الظروف كذلك لطلبت رؤية «معاوية» لأعاتبه على أشياء كثيرة لامجال للإشارة إليها في هذه العجالة، ولتوقفت في إجلال أمام قبر صلاح الدين.. ولعنت في سري الجنرال الإنجليزي اللنبي الذي وقف أمام نفس القبر، حين دخلت الجيوش البريطانية فلسطين في نهاية الحرب العالمية الأولى، قائلاً له بشماتة:

ها نحن قد عدنا ياصلاح الدين! مشيرا في ذلك إلى طرد صلاح الدين للصليبيين من بيت المقدس واندحارهم أمامه!

ولوقفت خاشعاً أمام قبر النبي يحيى عليه السلام في المسجد الأموي، وأمام قبر القطب الصوفي الجليل محيي الدين ابن عربي، وأمام قبر زينب الصغرى بنت الإمام الحسين رضي الله عنهما.

لكن كيف يتسع يومان فقط في دمشق لكل هذه الرغبات والأمنيات العديدة! فلتكن هذه الزيارة الخاطفة إذن هي بطاقة التعارف الأولية بيني وبينها، ولنأمل معاً في أن يتسع العمر لتكرار اللقاء وتعميق المودة.

وفي شوارع المدينة تجولت، ومن شارع إلى شارع مضيت، وفي المسجد الأموي تنسمت نسائم روحية جميلة معطرة بعطر المكان وأصداء التاريخ، وأمام قبر النبي يحيى خفق القلب بالرجاء والدعاء، وفي المقهى الشعبي القريب منه شعرت بأنني لم أغادر حي خان الخليلي بالقاهرة، وفي سوق الحميدية الشهير خيل إليّ أنني في شارع الموسكي.

وفي أول مكتبة دخلتها تقافزت أمامي عناوين الكتب العديدة التي أود شراءها وقراءتها.. لكن كيف يتسع العمر لكل ما يريد المرء أن يعرفه؟

لا مفر إذن من مقاومة الإغراء.. والاكتفاء ببضعة كتب وروايات منها المسرحية الجميلة التي عرضت في القاهرة قبل سنوات ولم أرها وهي «طقوس الإشارات والتحولات» لسعد الله ونوس، ومنها أيضاً رواية غسان كنفاني التي قرأتها منذ سنوات بعيدة وفقدتها فأعادتها إليّ دمشق في الزيارة الأخيرة.

«رجال في الشمس».

وفي كل مكان دخلته في هذه المدينة شعرت بالألفة.. ودفء المشاعر ووحدة الشواغل والهموم، فالبشر طيبون ومرحبون، وعاطفتي العربية تغلب عليّ فلا أرى فيهم ولا في المكان إلا كل شيء جميل.. ولقد خبرت هذه المسألة من قبل خلال أسفاري العديدة إلى بلدان العالم، وقلت دائماً لمن يشكو إليّ سوء المعاملة أو جفاء البعض في بلد يزوره لأول مرة.. إن المكان يحب من يحبه.. والبشر كذلك يحبون من يحبهم ويحترمهم، فإذا زرت بلداً لأول مرة فابدأه وأبدأ أهله بالحب تجد غالباً كل من تلتقي به فيه ودوداً معك وملبياً، وابدأه بالكره أو النفور أو الاستغلاء الباطني عليه أو الإحساس بالنقص تجاهه وتجاه أهله.. ولن تلتقي فيه غالباً إلا بكل من يؤكد لك إحساسك المسبق به، ومع أنها ليست فكرة علمية مائة بالمائة إلا أنها لا تخلو في نفس الوقت من حقيقة وجدانية ونفسية، وهي أن مبادرتك بالحب للآخرين تسهم بالفعل في فتح مغاليقهم وتدفعك للبشاشة في وجوههم والتعامل معهم بود، وتشجعهم على التجاوب معك.. فضلاً عن النظرية القديمة: «عين الرضا عن كل عيب كليلة.. ولكن عين السخط تبدي المساويا»!

ولقد طبقت فكرتي هذه مع معظم دول العالم فأكدت لي التجربة أنها ليست فكرة خيالية تماماً، ونفذتها مع دمشق مؤخراً فبدأتها وبدأت أهلها بالحب والتطلع

لمودتهم فغمرتني وغمروني بها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صور من حياتهم: الباب المفتـوح

نهض من نومه مثقلاً بنفس الإحساس المبهم بالحزن الشفيف، تمطى في فراشه وتلفت حوله يستكشف أبعاد المكان، كأنما يراه لأول مرة، كل شيء في مكانه المعتاد.. الفراش.. والملابس المعلقة على المشجب القريب وجهاز التليفزيون المغلق.

و الكتاب الساقط على الأرض منذ غشيه النوم فوقع من يده.. والمنبه المزعج.. وكوب الماء الفاتر الذي يبدأ به يومه، فلماذا يشعر دائماً بهذا الحزن الغامض.. ولماذا يثقله الإحساس بما يشبه الذنب، كأنما قد قصّر في أداء واجب أو أساء إلى أحد؟

مد يده إلى كوب الماء وتجرعه في بطء ونحاه جانباً وغادر الغرفة.. كعادته كل يوم اتجه بنظره إلى الغرفة المجاورة، ليرى هل مـازال بابها مغلقاً على صاحبها النائم، أم أنه قد نهض من نومه وغادر البيت إلى عمله.. رآه مفتوحاً، فاطمأن إلى أنه قد ذهب إلى عمله في الموعد الملائم ولم يتأخر عنه.. وقال لنفسه مكتئباً، وهو يغيب في الحمام: أيام قليلة ويظل هذا الباب مفتوحاً على الدوام!

فما عساي أن أفعل بحياتي حينئذ؟

غادر الحمام منتعشاً بعض الشيء بالماء البارد وشذا الكولونيا، ففرد السجادة الصغيرة.. استغرق في الصلاة، ودمعت عيناه كالعادة وجبهته تلامس السجادة، ولسانه يتهدج بالدعاء الطويل.. ثم انتهى من صلاته، فجلس ساهماً، بعض الوقت.. ثم طوى السجادة ودخل المطبخ وأعد لنفسه إفطاراً خفيفاً وكوباً من الشاي، وجلس إلى المائدة يتناول إفطاره وحيداً والحزن الغامض يغلف أحاسيسه تذكر - وهو يحتسي الشاي ويقرأ الصحيفة الصباحية التي جاء بها البواب - فيلماً مصرياً جميلاً شاهده قبل أعوام، وتوقف فيه أمام عبارة نطق بها أحد أبطاله في لحظة ضعف إنساني شديد، فلقد هجرته فتاته بعد أن يئست من وفائه لوعده لها بالزواج منها وتزوجت من غيره.. وتظاهر هو بالاستهانة بهجرها له، ورفض أن يظهر أي لوعة على فراقها مؤكداً أنها سوف ترجع إليه نادمـة بعد حين، إلى أن أفرط في الشراب ذات ليلة فإذا به يفقد تماسكه المزعوم ويتجه إلى بيت زوجها، ويزأر أمامه بصوت ممرور: عد الجروح ياقلم!.

وينادي فتاته السابقة مطالبا إياها بالخروج إليه، لأنه لا يطيق بعادها، ويتجمع حوله الجيران ويطالبونه بالتعقل والانصراف، فيهددهم بالأذى إذا اقتربوا منه... لكن أحدهم يتلطف به فينهار باكياً بين يديه، ويستسلم لمن يسحبه: بعيداً عن المكان!

عد الجروح.. ياقلم!

يالها من عبارة فريدة أفرزها قلب حسير، فهل يستطيع هو حقا أن يحصي كل الجراح التي أصابت القلب على مر السنين.. ومن أين يبدأ التعداد إذا أراد حقاً أن

يفعل ذلك؟!

من سن الطفولة المبكرة وهو يصحو من نومه ذات ليلة على يد

صفحة فارغة

أسابيع من موعد زفافها.. إلى الأخ الأكبر والأخ الأوسط، وكل منهما في منتصف العمر، حتى لم يبق من أسرته سوى أخت كبرى تقيم مع أبنائها في الجنوب، ولا يكاد يراها إلا كل عامين أو ثلاثة.

أم من فترة الحياة الزوجية، التي لم يهنأ بها سوى بضع سنوات قليلة أنس القلب خلالها إلى شريكة عمر طيبة القلب رقيقة المشاعر، وأمل في أن يحتمي بها ضد الوحدة والأحزان فإذا بها تمرض فجأة.. وتلازم الفراش بضعة أشهر، وتودع الحياة في شرخ الشباب، تاركة وراءها ثمرة القلب الوحيدة، ولد في الثامنة من عمره.. فيحدب هو عليه، ويكرس حياته لرعايته.. ويتلازمان ليل نهار، ويتشاركان في كل الأوقات حتى يصبح الابن العزيز محور حياته وكيانه، ويعاني هو الكثير حين يتقدم الابن في مدارج العمر وتصبح له حياة مستقلة، وتطول ساعات انشغاله عنه بأصدقائه، وأفكاره وشواغله المختلفة ورحلاته، بعيداً عنه بالأيام والليالي.. فيخلو عليه المسكن ويشتد إحساسه بالوحدة والخواء.

أم ترى هل يستعرض أشواك الأذى والغدر التي انغرست في صدره وجسمه خلال رحلة الحياة العملية، بالرغم من ميله الغريزي للمهادنة والعيش في سلام؟ أم هل يستعيد أوجاع القلب الحسير حين تنبهت مشاعره مرة أخرى، بعد عشر سنوات من رحيل الزوجة، واتجهت صوب زميلة له في العمل فأحبها بصدق، ورغب في الزواج منها وضم طفلها من زوجها السابق إلى رعايته، ورفض أن يقدم على الخطوة المهمة بغير أن يمهد لها عند الابن الغالي، فإذا به يثور على أبيه ثورة طائشة، ويرفض بإصرار دخول أيه امرأة أخرى بعد أمه حياته، ويعتصم ببيت خاله رافضاً العودة إلى أبيه، إن لم يعدل عن نيته وتفشل كل محاولات تذكيره بوحدة الأب وحاجته إلى الإيناس ودفء الزوجة في حياته، فيتراجع الأب في النهاية عن مشروعه باكياً، ويطلب من الابن العودة إلى البيت، رافضاً نصيحة الجميع وأولهم الخال نفسه بأن يمضي إلى مايريد، ويتزوج زميلته ولسوف تهدأ ثورة الابن بعد حين ويسلم بالأمر الواقع! ويعود الابن منتصراً ويرجع هو لوحدته وأحزانه ويتقبل صامتاً لوم زملائه واتهامهم له بتدليل ابنه تدليلاً فجاً، أصبح معه يكاد يتحكم في حياته.

فهل من العدل أن يجيئه بعد أن تخرج في كليته وعمل عملاً لائقاً.. وتركز فيه أمله في أن يتزوج ذات يوم، ويملأ عليه مسكنه بالأطفال الأحباء، حتى ولو تطلب الأمر أن يتنازل له عن المسكن ويحيا هو في غرفة وحيدة في أي مكان، هل من العدل حقا أن يجيئه ذات يوم ليقول له بابتهاج إنه قد حصل على تأشيرة هجرة إلى الأرض البعيدة، وينتظر انتهاء الإجراءات، لكي يرحل بعيدا عنه بعد أسابيع؟! وحين يلومه لمباغتته له بهذه «الخيانة» المفاجئة، يجيبه بأنه قد تعمد تكتم الأمر

عنه، ومضى في الإجراءات سرا لأنه يعلم جيدا أنه لن يسعد بذلك، لكنه يرجوه أن يسعد معه بهذه الفرصة..

ويعده بأن يستقدمه إلى مهجره، بعد أن تستقر به الأحوال، أو يرجع هو إليه كل عام إذا تعذر عليه استقدامه!

ياإلهى لكم تقسو القلوب الشابة في بعض الأحيان.

أيهاجر إلى الأرض البعيدة.. ويتركه وحيداً وهو الذي تجرع غصص الوحدة والحرمان من الحب والعشير من أجله؟

وماذا يفعل بحياته من بعده؟ هل يتزوج حقاً كما «نصحه» بذلك الابن الغالي مظهراً العطف عليه؟.. وأين كان هذا العطف، وهو يستجديه قبل خمس سنوات فقط، أن يقبل زواجه من زميلته بالعمل؟! لقد بلغ الآن الخامسة والخمسين و «فتاة القلب» التي رغب في الزواج بها قبل سنوات، ضاقت بتردده وعجزه أمام ابنه فانصرفت عنه وتزوجت غيره وأنجبت له، فكيف لقلبه أن يخفق لغيرها من جديد؟ ومن قال للابن العزيز إنه سوف يسعد بالهجرة إليه، إذا أتيحت له الهجرة، فيجد نفسه غريباً وحيداً في أرض غريبة بلا أهل ولا أصدقاء، وهو في هذه المرحلة من العمر؟

نعم.. نعم لكم تقسو حقاً القلوب الشابة في بعض الأحيان؟!

ولكن هل نملك ألا نسلم لثمرات القلوب بما يرون فيه سعادتهم وأملهم.. ولو تجرعنا نحن غصص الألم؟!

ويوماً بعد يوم.. والابن الحبيب يمضي إلى غايته، بغير أن يتوقف أمام النداء الصامت في عين أبيه، أن يعدل هو أيضاً عن رغبته، كما أجبره ذات يوم على العدول عن أمل قديم.

وكلما نهض من نومه في الصباح وتطلع إلى باب غرفة الابن الغالي وجده مفتوحاً على الدوام.. والحجرة خالية دائماً من سكانها!

تنبه لنفسه فوجد الساعة تقترب من التاسعة صباحاً، وكوب الشاي الذي كان يحتسيه فارغاً حتى الثمالة.. وأطباق الإفطار كاملة أمامه لم تمسها يده.. فأعاد الكوب إلى موضعه.. وهم بأن يمد يده إلى الخبز المحمص، لكن نفسه عافت الطعام في اللحظة الأخيرة.. فسحبها وحمل الصينية إلى المطبخ، واتجه إلى غرفة نومه ليرتدي ملابسه، ويذهب إلى عمله بلا إفطار كعادته منذ أبلغه الابن بنيته المفاجئة، وانتهى من ارتداء ملابسه وسحب الحزن الصامت تتكثف داخله، ووقف يمشط شعره أمام المرآة فخيل إليه أنه يرى فيها الرجل المخمور بطل الفيلم الجميل، وهو يزأر مطالباً القلم بأن يعد جراحه.

وفي لحظة ضيق تساءل: ألا أمل حقاً في أن يعدل الابن الحبيب عن رغبته الغادرة في البعد عنه؟ وأليس هناك أي أمل، ولو كان واهياً، في أن تسحب دولة المهجر تأشيرتها السابقة له بالهجرة؟

وإذا لم يحدث هذا ولا ذاك هل يجد من زميلاته في العمل من يضمن تعاطفها وعونها له، إذا رجاها ذات يوم أن ترشده إلى سيدة أرملة رحيمة، أو مطلقة عطوف تقبل الزواج من كهل حزين القلب يميل للصمت واجترار الأحزان.. ويتعلق كل أمله في الحياة برنين التليفون الذي يحمل له صوت الابن الوحيد من وراء المحيطات؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الحقيقة!

مازلت مولعاً بقراءة تفاصيل الفصل الأخير في حياة بعض الشخصيات التاريخية التي تلاعبت لفترات بالمصائر.. وأقدار الشعوب.. هل لأني أراهم في النهاية وقد عادوا أشخاصا بؤساء لاحول لهم ولا قوة كباقي البشر.. أم لأن الجميع مهما بلغوا من القوة والبطش في بعض المراحل يجيء إليهم الموت فيجرف أمامه ماكانوا يعتقدون أنه لا يزول؟

لا أعرف.. كما لا أعرف أيضاً لماذا وجدت نفسي أعود إلى قراءة تفاصيل المشهد الأخير في حياة أدولف هتلر زعيم ألمانيا النازية الذي حارب العالم وحاربه العالم 6 سنوات كاملة كانت إشارة منه خلالها تكفي لاختفاء دولة ما من الخريطة أو بقائها.. ثم جاء الفصل الأخير كما لابد أن يجيء.. وبعد الانتصارات الكاسحة مالت الشمس للمغيب.. وتوالت الهزائم وتراجعت الجيوش الألمانية في كل الجبهات.. واقتربت جيوش الحلفاء والجيوش الروسية منها بالذات من مخبأ هتلر بمبنى المستشارية في برلين.. وبدأ جرذان السفينة الغارقة يفرون منها واحدا وراء الآخر، وأدرك الجميع في ألمانيا وفي كل العالم أنها النهاية المحتومة.. ماعدا شخص واحد هو الفوهرر العظيم هتلر. فلقد عزا الهزائم إلى خيانة القواد وليس إلى تغيّر موازين القوة وراح يعقد مؤتمره العسكري ظهر كل يوم كما اعتاد أن يفعل طوال 6 سنوات.. ويصرخ في قواده.. ويذرع الملجأ المحصن الذي يقيم فيه تحت الأرض ومعه هيئة مكتبه ملوحاً بخريطة تمزقت من عرقه وعصبيته ويضع الخطط لحملة جيش القائد الألماني ونيك كما جاء بالنص في كتب التاريخ.

لكن حملة «ونيك» وهجوم جيش القائد شتاينر لم يكونا إلا من بنات أفكار الفوهرر فقد تمت تصفية جيش ونيك.. والجيش التاسع وكان جيش القائد هنريك يتجه إلى الحلفاء ليستسلم لهم وكل ذلك وهتلر مستمر في تحريك جيوش وهمية.. متهماً قواده وناسباً الانتصارات السابقة إلى عبقريته وحدها.. والهزائم الحالية لخيانة القواد وجبنهم.

وفي غمرة الأحاسيس المشوشة بالنهاية قرر أن يتزوج عشيقته إيفا براون، مكافأة لها على إخلاصها له طوال السنوات السابقة.. واستدعى موظفاً من المجلس البلدي لبرلين ليعقد قرانه رسمياً عليها.. وتم القران وبعده بقليل سلّم سكرتيرتيه كبسولتين من السم وخيّرهما في استعمالهما إذا أرادتا عند الضرورة.. واقتربت الجيوش الروسية.. وبدأت مدافعها تدك دار المستشارية وحديقتها فأمر بتسميم كلبه المفضل وكتب وصيته التي طرد فيها وزير حربه «الخائن» جورنج من الحزب ومن منصبه ورئيس الحرس النازي «هملر» من مناصبه، لأنهما كما كتب حاولا اغتصاب السيطرة على الدولة والتفاوض مع الحلفاء

وفي اليوم الأخير عقد الفوهرر مؤتمره الحربي عند الظهر كالعادة ثم مؤتمره المسائي وبلغته أنباء وصول الروس إلى مبنى وزارة الطيران الذي يقع على مرمى حجر من دار المستشارية حيث يقيم في الملجأ الحصين المقام تحتها فظل

يحرك جيوشا خيالية يفترض قدومها لإنقاذ العاصمة.. ويملي رسالته الأخيرة، ثم دخل أخيرا جناحه الخاص وطلب من الجميع عدم الانصراف للنوم.. وبعد ساعات طويلة خرج إليهم بعد الثانية والنصف صباحا وصافحهم..! فما إن عاد مرة أخرى إلى جناحه حتى تولت بعض الحاضرين رجالا ونساء هيستيريا مرح غير مفهوم فتوجهوا إلى الكافيتريا وانخرطوا في رقص صاخب محموم غير مبالين برسول هتلر الذي طلب منهم بعد قليل خفض أصوات الضجيج!

وفي اليوم التالي تناول الفوهرر غداءه الأخير مع سكرتيرتيه وطاهيته.. أما عروسه فلم تكن راغبة في تناول الطعام، وبعد الغداء عاد إلى غرفته.. ووضع مسدسه في فمه وأطلقه.. أما عروسه فلقد تناولت، السم بهدوء.. وكانت قذائف المدفعية تتوالى على دار المستشارية.. فحملوا جثمان الفوهرر ملفوفاً ببطانية عسكرية لتخفي وجهه المشوه.. وزوجته.. ووضعوا جثتيهما في حفرة من الحفرات العميقة التي صنعتها قذائف المدفعية الساقطة وسكبوا عليهما صفائح البنزين وأشعلوا فيهما النيران.. ووقف الحاضرون بإجلال أمام اللهب المتصاعد وبدأوا يؤدون التحية الأخيرة للفوهرر وزوجته رافعين أيديهم اليمنى إلى أكتافهم على الطريقة النازية.. فإذا بقصف المدفعية يعود.. بشدة.. وإذا بالجميع يفرون عائدين إلى الملجأ.. وضاع جلال مشهد الوداع!

* * *

أما هذه الشخصية الرهيبة فلقد قرأت عن الفصل الأخير في حياتها بالصدفة.. فلقد مددت يدي إلى رف كتب التاريخ القديم فعادت بكتاب عن تاريخ الصين.. استغرقت في قراءته فشدتني فيه شخصية «شيه هوانج» أقوى وأبشع أباطرتها وأكثرهم سفكاً للدماء، لقد عرف منذ صباه بالقسوة وانعدام الضمير حتى مع أقرب الناس إليه، ثم تولى عرش إقليمه في القرن الثالث قبل الميلاد وعمره 25 سنة فتطلع إلى فرض سيطرته على باقي ولايات الصين وحارب كل الولايات بضراوة لا تعرف الرحمة وأخضعها كلها خلال 9 سنوات ووحدها لأول مرة في تاريخها ثم بنى سور الصين العظيم الذي يمتد 1500 ميل حولها واستقر على عرشها وحكمها بالحديد والنار.

ولم يكن «شيه هوانج» يكره شيئاً في الحياة كما يكره الشعراء والفلاسفة والمثقفين والمؤرخين وهو الإمبراطور الذي أمر بإحراق كل المؤلفات حتى اضطر طلاب الفلسفة الكونفوشية إلى الهرب إلى الجبال وحفظ المؤلفات غيباً حتى لا تضيع وأعدم مئات المثقفين الذين حاولوا الاحتفاظ بكتبهم.. وازداد الامبراطور مع الأيام شراسة وغلظة فأعلن نفسه إلها وفرض على شعبه عبادته وفقد ثقته بالجميع فأصبح لا يجلس على عرشه إلا وسيفه بين يديه ويبيت كل ليلة في غرفة مختلفة من غرف القصر العديدة خوفاً من الاغتيال ثم أحس باقتراب الموت، فهل يموت وحده كما يموت الناس؟

لا بالطبع لقد بني قبراً محصناً كالقصر وأمر- وكلمة الإمبراطور الإله لا ترد - بأن تُدفن معه يوم وفاته ثلاثة الآف فتاة جميلة على قيد الحياة وأمر بأن يُدفن معه

العمال الذين بنوا القبر الحصين حتى لا يرشدوا أحدا إليه فينهبه الناهبون!

ثم جاءه الموت الذي لا يفرق بين الأباطرة والعبيد فلم يجرؤ أحد على الاقتراب من الغرفة التي مات بها، وظلت جثته داخلها بضعة أيام حتى فاحت رائحتها النتنة واضطر الخدم إلى إخراجها وسط موكب من عربات السمك لكي تغطى رائحته على رائحة جيفة الإمبراطور!

وانطوت صفحة كريهة أخرى من صفحات التاريخ وأسرعت أنا بإغلاق الكتاب قبل أن يزيدني اكتئاباً!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لاحظ.. ثم لاحظ.. ثم لاحظ!

خدعني اسم مجلة الشباب.. أو خدع على الأصح من دعوني إلى زيارة تلك الدولة العربية الشقيقة... فقد دعيت منذ سنوات لزيارة سلطنة عمان، واتصل بي المستشار الإعلامي بسفارتها في القاهرة.

يسألني عمن أحب أن ألتقي بهم خلال زيارتي لبلاده، والأماكن التي أفضل زيارتها، فأجبته بأنني كعادتي في زياراتي المماثلة للدول العربية والأجنبية، فإني أهتم بأن أرى معالمها التاريخية المميزة ومتاحفها وبعض مظاهر ثقافتها وفنونها، كما أفضل دائماً أن تتاح لي الفرصة لأن أرى شكل الحياة اليومية فيها من خلال تجوالي الحر في شوارع عاصمتها وأسواقها وأنديتها ومقاهيها.. أما من أحب الالتقاء بهم فهم - بحكم طبيعتي - بعض المشتغلين بالأدب والصحافة والسياسة لأتحاور معهم.. وأعرف منهم ما أريد معرفته عن مجتمعهم. ووعدني المستشار بتلبية مطلبي راجياً لي إقامة طيبة في بلاده، لكن ظروفي حالت بيني وبين تلبية الدعوة على الفور، وشغلتني الشواغل حوالي ثلاثة شهور قبل أن أتأهب لزيارة هذه الدولة العربية.. وحين ركبت الطائرة إليها كان المستشار الإعلامي قد انتقل من عمله بالقاهرة إلى سفارة أخرى، وحل محله مستشار جديد لم أناقش معه للأسف برنامج زيارتي لبلده اعتماداً على أنه مُعَدٌّ سلفاً منذ عدة شهور، وهكذا وصلت إلى مطار مسقط في وقت متأخر من الليل ذات يوم منذ سنوات، فوجدت مندوباً من الجهة الداعية في انتظاري، لفت نظري أنه شاب صغير السن قد لا يتجاوز عمره عشرين عاماً، ورحب بي الشاب وساعدني بشهامة في حمل حقيبتي، ثم اصطحبني في السيارة إلى الفندق.

الطريق إلى الفندق خال في هذا الوقت المتأخر من الليل، والشاب المرافق يقود السيارة بسرعة جنونية كأنما يسابق بها الريح، ويبتسم كلما رجوته أن يخفف من سرعته، ويستجيب لرغبتي للحظات، ثم لا يلبث أن تغلبه طبيعة الشباب.

وصلنا في النهاية إلى الفندق بسلام، وقدم لي الشاب برنامج الزيارة في مظروف مفتوح، وتركني لأستريح على أن يرجع إلى في الصباح، وكعادة رجل المراسم في مثل هذه الزيارات أبلغني الشاب أنني أستطيع بعد قراءة البرنامج إلغاء أية لقاءات مقترحة لاأراها مفيدة لي، وكعادتي مع نفسي أدركت أنني سوف أتحرج من الاعتذار عن أي لقاء تم ترتيبه لي من الجهة الداعية، تجنباً لإحراجها مع من حددت معهم مواعيد هذه اللقاءات من قبل.

ثم صعدت إلى غرفتي، واستسلمت لنوم جائع إلى الراحة.. وقد يرحب المرء بمثل هذه الأسفار لتخرج به من مطحنة العمل اليومية، ويجد فيها أول مايجد فرصة لأن ينال خلالها ما لا يتاح له غالباً في حياته الطبيعية من القدر الكافي من النوم والراحة! نهضت في الصباح منتعشا بساعات النوم الهادئ التي أتيحت لي في ليلتي الأولى بمسقط، وشربت قهوتي، وأخرجت ما أحمله معي دائماً من **كتب أو نشرات عن الدولة التي أزورها، لأقرأ عنها قبل أن أتعرف عليها على الطبيعة..**

ووجدت أمامي ساعتين خاليتين من الارتباطات قبل مجيء المرافق فاستغرقت في قراءة هذه الكتيبات، واستخلاص الأرقام والمعلومات منها وتدوينها في المفكرة الصغيرة التي خصصتها للرحلة.

فمن عادتي أيضاً أن أحمل معي مفكرة صغيرة جديدة في كل رحلة أقوم بها إلى دولة من دول العالم، وأن أدون فيها ما أجمعه من معلومات عنها.. ومايستلفت نظري من ملاحظات أو مشاهدات خلال إقامتي بها.. بالإضافة إلى ملخص شديد التركيز لمعظم حواراتي مع من ألتقي بهم من مسؤوليها ومفكريها وفنانيها، فإذا رجعت إلى بلدي كتبت على هذه المفكرة اسم البلد الذي زرته وتاريخ الزيارة وضممتها إلى «زميلاتها» من المفكرات المماثلة، وقد أرجع إليها عقب عودتي من الرحلة على الفور إذا أردت الكتابة عن البلد الذي زرته، وقد تمضي سنوات قبل أن أرجع إليها مرة أخرى إذا دعني داع لاسترجاع ذكريات الرحلة والكتابة عنها..

وبفضل هذه العادة تجمعت لدي الآن عشرات من المفكرات الصغيرة الثمينة.. تحمل أغلفتها عناوين من نوع «اليونان 70» و «إيطاليا 70» و «ألمانيا 74» و «إنجلترا 77 و 85 و 87 و 88 و90 و 92 و97» إذا تكررت الزيارات لنفس البلد..

وهكذا، حتى بلغ عدد المفكرات الصغيرة التي تسجل زياراتى لدولة كفرنسا مثلاً 15 مفكرة! ولقد ظننت ذات يوم أنها عادة متخلفة في عصر يعتمد فيه الكثيرون على أجهزة التسجيل الصغيرة التي يهمسون إليها بملاحظاتهم ثم يحتفظون بشرائطها بدلاً العادة «البدائية»، إلى أن كنت في زيارة للكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل منذ سنوات وتحاورت معه عن بعض وقائع تاريخ مصر المعاصر خلال مرحلة الوحدة مع سوريا، فإذا به يستدعي سكرتيره، ويطلب منه ملف زيارته لسوريا عام 1959، فيغيب السكرتير ويرجع إليه بملف صغير، فتحه الأستاذ هيكل فإذا به يضم مفكرة صغيرة وبضع أوراق إصْفَر لونها من القدم سجل عليها بخطه الدقيق ملاحظاته وملخصاً لما شهده بنفسه من حوارات وأحاديث سياسية بين عبد الناصر والساسة السوريين خلال تلك الزيارة! وعرفت منه أنه مازال يحافظ على هذا التقليد حتى الآن، وأنه يدون دائماً بخط يده ملخصاً مركزاً لكل حديث يتبادله مع أية شخصية هامة سياسية أو فكرية، ليرجع إليه ذات يوم ولو بعد ثلاثين عاماً!

استغرقت في قراءتي لما حملته معى من كتب صغيرة عن عمان أو «مسقط وعمان» كما كانت تعرف في التاريخ من قبل، وعرفت أن مساحتها تمتد فوق 212 ألف **كيلو متر مربع، وأن عدد سكانها في أحدث التقديرات حوالي 1.8 مليون نسمة، وأن نسبة الكثافة السكانية فيها قليلة ولا تكاد تتجاوز 9 أشخاص في الكيلو متر المربع، فلا عجب أن يشعر بعض أهلها بالذهول إذا زاروا حي شبرا بالقاهرة الذي قد تزيد الكثافة السكانية فيه عن 1000 شخص في الكيلو متر المربع، أو إذا زاروا بعض مدن الهند المزدحمة بالبشر.**

أما عاصمتها فسكانها حسب تقديرات عام 1993، حوالي622 ألف نسمة، وأما جامعتها فحديثة النشأة وتأسست عام 1986، وأما الأسرة الملكية الحاكمة فلقد أسسها أحمد بن سعيد عام 1741، وتعد أسرته الملكية بذلك من أقدم الأسر الحاكمة في المنطقة العربية الآن.

انتهيت من قراءتي السريعة لهذه الكتيبات ووجدت مظروف برنامج الزيارة ففتحته لأول مرة وقرأته، فإذا به كله لقاءات ومقابلات مع رؤساء الاتحادات الرياضية في الدولة العربية الشقيقة ابتداءً من رئيس اتحاد الهوكي.. إلى رئيس اتحاد الكرة الطائرة.. إلى سكرتير اللجنة الأوليمبية الرياضية!

يا إلهي .. ماذا أقول خلال هذه اللقاءات؟ وماذا سوف أسمع فيها؟

لقد خدع اسم مجلة «الشباب» من أعدوا لي هذا البرنامج بسبب الربط الشائع بين الرياضة والشباب، فتصوروا أنه من الأنسب، لاهتماماتي أن ألتقي بمسؤولي الرياضة في بلدهم، وليس برجال الأدب والفكر والسياسة، فماذا عساي أن أفعل في هذا المأزق؟

أدركت على الفور أنني سوف أتحرج من لفت نظر الجهة الداعية إلى عدم ملاءمة هذا البرنامج لاهتماماتي، وانتظرت مجيء المرافق في موعده، وخرجت معه - ممتثلاً لأقداري - إلى أول هذه اللقاءات!

ولأربعة أيام متتالية بعد ذلك رحت أتنقل بين مكاتب رؤساء الاتحادات الرياضية في سلطنة عمان، وأستمع إلى وجهات نظرهم في أحوال اللعبات التي يديرونها، وأستسلم في بعض الأحيان لشرودي خلال ذلك، وأجاهد لكيلا تبدو عليّ ملامح عدم التخصص أو عدم الاهتمام! مستعيناً على ذلك، باسترجاع كلمة غريبة قرأتها لكاتب أمريكي اسمه دوك دى مورني تقول: الرجل المهذب هو الذي ينصت باهتمام وشغف لأشياء لاتثير في الواقع اهتمامه أو شغفه حرصاً على عدم جرح مشاعر محدثه !

وبين كل لقاء وآخر يترفق بي المرافق فيصطحبني لزيارة حصن أثري قديم في مسقط، ويحذرني قبل الاقتراب منه مما سأعانيه من مشقة تسلق الربوة التي يقع فوقها، فأتهلل للزيارة مبدياً حماسي لتجشم عناء تسلق الربوات العالية لأنه أخف وطأة عليّ من عناء إبداء «الاهتمام والشغف» بما لا يهمني في الحقيقة في شيء كثير خلال المقابلات الأخرى.

وانتهى برنامج الزيارة بسلام... ووجدتني في نهايته قد كونت «فكرة» لا بأس بها عن أحوال الرياضة في القطر الشقيق، وتسلقت عدة ربوات عالية، وتفقدت عدة حصون أثرية قديمة يرجع تاريخ بعضها إلى ماقبل الإسلام ويرجع تاريخ البعض الآخر للقرن الثامن عشر، كما وجدتني وهو الأهم و قد ملأت معظم صفحات المفكرة الصغيرة بما سمعت وما شاهدت خلال لقاءاتي وجولاتي الحرة في أسواق المدينة ومقاهيها عقب انتهاء برنامج المقابلات..

ولقد كانت هذه الجولات هي أهم فقرات برنامجي غير الرسمي لزيارة سلطنة عمان.. وعلمتني التجربة أنني قد أعرف من خلال الجولات عن شعب البلاد التي أزورها ومجتمعها ماهو أهم بكثير مما قد أعرف، عنهما خلال الأحاديث والمقابلات الرسمية.

وكثيراً ما تذكرت - خلال جولاتي هذه في أي بلد أزوره - نصيحة الروائي الفرنسي جوستاف فلوبير لتلميذه جي دي موباسان.. حين سأله التلميذ من أين يستمد مادة قصصه فأجابه: لاحظ الحياة من حولك.. ثم لاحظ.. ثم لاحظ!

ولقد عملت بالنصيحة أنا أيضاً، فلاحظت.. ولاحظت.. ولاحظت،.. خلال زيارتي لعمان.. ولكل دولة زرتها.. وفي حياتي اليومية في بلدي كلما شاهدت شارعاً جديداً لم أمش فيه من قبل.. أو بيتاً لم أره.. أو حديقة لم أزرها.. أو معلماً أثرياً لم أتعرف عليه من قبل.. ناهيك عن تأملاتي الصامتة شبه الدائمة للبشر من حولي.

ولقد «لاحظت» خلال جولاتي في أسواق مدينة مسقط ظاهرة أعجبت بها في البداية، وتعجبت لها في النهاية.. فلقد رأيت شاباً لا يزيد عمره عن التاسعة عشرة ومعه «أخته» التي لايزيد عمرها أيضاً عن 17 عاماً يتسوقان في المحلات التجارية ويتشاوران فيما يشتريان، وأعجبت بأن يصطحب الأخ أخته إلى شراء احتياجات البيت وأن يتبادل معها الرأي بهذه الروح الأسرية الجميلة، وأبديت ملاحظتي هذه لمرافقي الشاب فاستغرق في الضحك وصحح لي «الملاحظة» قائلاً لي: إن هذين الشابين الصغيرين ليسا أخا وأختا وإنما زوجا وزوجة لأن ظاهرة الزواج المبكر مازالت منتشرة في عمان!

ولاحظت كذلك هدوء الحياة في هذا البلد العربي بصفة عامة.. ونظافة شوارعه واحترام أهله لقواعد المرور..

أما أغرب ملاحظاتي فقد تركزت على تحول أسواق وسط المدينة الجمعة من كل أسبوع إلى سوق هندية خالصة يُخيل إليك حين تراها أنها في مدينة من مدن شبه القارة الهندية وليست في دولة عربية، فأنت لا ترى فيها إلا هنوداً من العاملين في هذه الدولة خرجوا يوم راحتهم الأسبوعية لشراء احتياجاتهم، فسدوا مداخل وسط المدينة ومحلاتها وأسواقها، حتى لينصحك الخبير إذا أردت شراء شيء من أسواق مسقط، ألا تخرج لشرائه يوم الجمعة.

كما لاحظت أيضاً انتشار العمران في المدينة وبساطة معظم من تعاملت معهم من أهلها.

وكما أنه ليس هناك كتاباً تقرؤه ولا تستفيد منه شيئاً ولو كان هيناً كما قال العقاد ذات يوم فليس هناك أيضا بلداً تزوره لأول مرة ولا تعرف عنه الكثير والكثير حتى ولو كنت قد تقيدت خلال زيارتك له ببرنامج من اللقاءات والمقابلات التي لا تلائم اهتماماتك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الضباب الأبيض

كان صباحاً عادياً كغيره من «الأصبحة» التي أنهض فيها من نومي أحياناً في موعد مبكر لكتابة واجب صحفي لابد لي من كتابته قبل ذهابي إلى العمل.

ولقد علمتني تجاربي أنني حين أكون مطالباً بإنجاز عمل لابد من إنجازه في الصباح الباكر فإني أدخل فراشي قبل موعدي المعتاد بساعة أو ساعتين على أمل أن أنجح في اقتناص ثلاث أو أربع ساعات من النوم المضطرب قبل النهوض لأداء الواجب الثقيل، فأفعل ذلك وأحاول تهدئة أعصابي ومراودة النوم إلى أن «يرق» ويجيء، وأغمض عيني في ظلام دامس إلى أن يقترب الموعد المحدد ويرن جرس النبه أو لا يرن فأنهض من فراشي متحيراً ومتسائلاً: هل نمت حقاً.. أو ترى أنني لم أنم لحظة واحدة؟

وأما ما يرجح لي أنني قد نمت فهو أنني قد استلقيت في فراشي بضع ساعات بلا حركة ولا قراءة في أحد الكتب الموجودة إلى جواري، وأما ما يريبني في حقيقة نومي فهو أنني قد «شعرت» بكل لحظة مرت على وأنا راقد في فراشي مغمض العينين، «وفكرت» أيضاً طوال ذلك فيما سأكتبه في الصباح الباكر، وقلبت أكثر من فكرة في رأسي للمقال المنتظر، وربما أكون قد رسوت في النهاية على اختيار إحداها موضوعاً للمقال، فكيف أكون قد نمت إذن والنوم غياب كامل عن دنيا الأحياء والأفكار والشواغل؟!

إنها مسألة محيرة لم أنجح في حسمها حتى الآن، فوقفت منها موقفي من بعض ألغاز الحياة الأخرى التي لا أجد لها حلاً ولا تفسيراً، تماماً كما وقفت منذ زمن طويل عاجزاً أمام هذه الأمنية الغالية، في أن يجيء يوم أفعل فيه كما يفعل السعداء الحقيقيون في الحياة.. فلا أدخل فراشي إلا حين يدعوني داعي النوم اللذيذ إلى ذلك، ولا أنهض منه إلا حين تدعوني ساعة جسمي البيولوجية إلى النهوض بعد الارتواء الكامل من الراحة، وبغير حاجة إلى إزعاج جرس المنبه، أو «رنين» هاجس الواجب الذي يدعو المرء لمغادرة فراشه قبل أن يشبع حاجته إلى النوم.

وكثيراً ما تساءلت عما يستحق أن أنهض من فراشي من أجله وأنا في هذه المرحلة من عمري قبل أن أنال حظي كاملاً من الراحة والنوم، فلا أجد لذلك إجابة مقنعة سوى توهم الإنسان الأحيان أنه يقوم «بجلائل المهام والأمور» التي لا تحتمل الانتظار إلى أن يرتوي من الراحة! وتذكرت مراراً ذلك المفكر الفرنسي الحالم «سان سيمون» (1760- 1825) الذي لم يكن له من عمل سوى التفكير والتأمل والبحث عن حلول نظرية لمشاكل المجتمع واستغلال الطبقات الفقيرة فيه، وهي كما ترى «مهام» تتسع لها ساعات النهار بلا إرهاق أو حاجة لاختصار ساعات النوم، ومع ذلك فقد درب خادمه على أن يوقظه من نومه في موعد مبكر كل صباح قائلاً له: انهض يا سيدي الكونت، فإن أمامك أعمالاً جساماً لتؤديها!

وفي ذلك الصباح الذي أحدثك عنه نهضت من نومي في الخامسة بغير أن يدعوني خادم أمين للنهوض كـ «سان سيمون»، وإنما دعاني إلى ذلك خادم غير مخلص ولا أمين هو ذلك الشعور المنغص للراحة بأن هناك واجباً ثقيلاً لابد لي من أدائه، وكان واجبي ذلك الصباح استكمال كتابة بريد الجمعة لكي أرسل به للمطبعة لينشر صباح اليوم التالي، وكنت قد أمضيت في اليوم السابق نهاراً طويلاً مرهقاً بدأته أيضاً في الخامسة صباحا، وكتبت فيه نصف الباب حتى الحادية عشرة صباحاً، ثم ارتديت ملابسي وتوجهت إلى عملي، فقضيت فيه سبع ساعات مشحونة بالعمل والتوتر، والانفعال والتفكير، وغادرت العمل في السادسة مساء، وتوجهت إلى جامعة القاهرة لأشهد حفل كلية الإعلام لتكريم الرواد من خريجي دفعاتها الأولى، وكنت من بينهم، وصعدت إلى المنصة لأتسلم شهادة التقدير وأنا أغالب الإعياء والإجهاد، ورجعت إلى البيت في المساء فغالبت إجهادي حتى منتصف الليل ثم أغمضت جفوني مؤملاً أن أنام خمس ساعات قبل النهوض مرة أخرى لأداء الأعمال التي تنتظرني.

وصحوت من نومي متحيراً كعادتي.. هل نمت أم لم أنم؟! وأنا أشعر بغثيان غريب لا أدري له سبباً، وأفرغت معدتي الخالية في الحمام، ثم اغتسلت وتوجهت إلى المطبخ، فصنعت كوباً من الشاي، وعزفت - ربما بسبب الغثيان - عن تناول إفطاري، ورجعت إلى مكتبي فانهمكت في كتابة بريد الجمعة، واستشارة المراجع والكتب، وشربت فنجانين من القهوة وكوبا آخر من الشاي، ودخنت عشر سجائر كعادتي الضارة للأسف حين أنهمك في الكتابة، ثم أفقت على جرس الباب ومجيء السائق في الحادية عشرة ظهراً يدعوني للذهاب للعمل، فنهضت وحلقت ذقني وبدأت في ارتداء ملابسي، فإذا بي أشعر بخور غريب في قوتي حتى إني لأعجز عن رفع ذراعي لعقد ربطة العنق أو معالجة أزرار القميص، وعجزت بالفعل عن استكمال ارتداء ملابسي، فجلست إلى الفراش وانتظرت أن تنتهي هذه النوبة العارضة من الإجهاد لأخرج إلى عملي، فإذا بها تستمر وتطول لأكثر مما توقعت.. فانشغل فكري بشيء واحد محدد هو كيف أتخفى عن أسرتي بما أعاني منه فلا تشعر به، كعادتي التي لا حيلة لي فيها في مثل هذه المواقف.

وهداني تفكيري إلى أن أتحامل على نفسي وأغادر غرفة النوم لأجلس على مقعد مريح في بهو الشقة متظاهراً بمشاهدة التليفزيون، ومنتظراً في واقع الحال أن تنقشع هذه السحابة الثقيلة من الضعف والوهن لكي أستطيع استكمال ارتداء ملابسي ومغادرة البيت.. ولاحظت زوجتي جلوسي أمام التليفزيون على غير عادة في مثل هذا الوقت، فسألتني عما بي وطمأنتها إلى أنني بخير لكني أستريح قليلاً قبل الذهاب للعمل، لكن هيهات أن يخفي الإنسان سراً يفضحه شحوب وجهه المخيف وعجزه عن الحركة.

وكررت السؤال عما بي، وكررت الإجابة غير المقنعة، ثم شعرت فجأة وكأن سحابة كثيفة من الضباب الأبيض تتصاعد في داخلي من أسفل إلى أعلى، وتحول بيني وبين رؤيتها كما تحجب «الشبورة» الصباحية الرؤية أمام قائدي السيارات! وتحول وجه زوجتي إلى تهويمات غامضة، أنظر إليها ولا أتبين معالمها، ثم غبت

عن الوعي للحظات لا أدري حسابها، ورجعت منه على صوت صرخة فزع، فإذا بخاطر أساسي يلح عليّ بشدة في هذه اللحظات العصيبة، هو أن أستجمع قواي لأقول لمن معي: «بريد الجمعة»! طالباً من أسرتي أن تسلمه للسائق ليذهب به للأهرام على عجل لكي يلحق بموعد الطبع!

ثم رجعت سحابة الضباب الأبيض الكثيف لتحجب الآخرين عني مرة أخرى.

وتمالكت نفسي بعد قليل فنهضت بمعاونة من معي لخلع ملابسي والاستلقاء في فراشي، وقد يئست هذه المرة من انقشاع الأزمة والذهاب إلى العمل، واستسلمت لما يشبه النوم، وفتحت عيني بعد وقت، لا أدري هل طال أم قصر، لأجد غرفة نومي مزدحمة بالرجال من أطباء الأهرام، وإلى جوار الفراش جهاز لرسم القلب، وجهاز لقياس الضغط، وسمعت صوت طبيب الأهرام الصديق الدكتور حسين يتصل بإحد المستشفيات ويرتب معه نقلي إليه، وسألته راجياً: ألا يمكن أن أتلقى علاجي في البيت؟ وسمعت إجابته الحاسمة: لا!

وفي المستشفى جاءت أولى نتائج الفحوص مطمئنة والحمد الله إلى أنها لم تكن ذبحة صدرية كما تشكك الأطباء في البداية، وإنما كانت هبوطاً شديداً بسبب الإجهاد وقلة النوم والمجهود الانفعالي، لكن طبيب القلب الكبير الدكتور طه عبد العزيز تمسك بإدخالي غرفة العناية المركزة لمدة يوم وليلة، وسمح بنقلي بعدها إلى إحدى غرف المستشفى لأبقى تحت الملاحظة يومين آخرين.

وتلقيت وأنا في المستشفى النصيحة الغالية بالاحتراس من غول الإجهاد البدني والانفعالي، وبالاعتدال في بذل المجهود، وتنظيم الوقت، وإطالة ساعات الراحة وتقليل فترات استنشاق هواء المكاتب الراكد، والوجود لفترات أكبر في الهواء الطلق بعيداً عن توتر العمل وانفعالاته، والامتناع عن التدخين.. وتكررت النصائح المخلصة على ألسنة الأحباء والأصدقاء والزملاء الذين غمروني بعطفهم خلال فترة المستشفى وبعدها، واعتزمت مخلصاً اتباع نصائحهم الغالية، وتوجهت لقضاء بضعة أيام على ضفاف البحيرات المُرَّة في فايد عقب مغادرتي المستشفى، ورجعت إلى العمل معتزماً التخفف من بعض أعبائي فيه والتزمت بذلك بالفعل لبضعة أيام، ثم إذا بالفترات التي أقضيها في العمل تتزايد تدريجياً لتقترب من معدلاتها السابقة، وإذا بي أضبط نفسي بعد أسبوعين فقط أنفعل بتوترات العمل ومعايشة تجربة العمل الصحفي في جريدة يومية كما كان الحال من قبل.

وإذا بخادمي - غير الأمين!- يرجع إلى إيقاظي من نومي قبل أن يرتوي جسمي منه مرة أخرى زاعماً لي أن أمامي «أعمالاً جساماً لأؤدِّيها».

وإذا بالعجلة ترجع للدوران كما كانت، بنفس معدلاتها القديمة، وكأن شيئاً لم يكن!

فإذا كان ثمة شيء قد استفدته من هذه التجربة فهو أنني حاولت بإخلاص الامتناع عن التدخين أو التقليل منه، والالتزام بوعدي لنفسي بأن أقضي في نهاية كل شهر إجازة قصيرة في مكان مفتوح للشمس والهواء خارج القاهرة!! والحمد لله من قبل ومن بعد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنت كما تفكر!

أجاهد صادقاً لكي أتخلص من هذه «النظارة» فأنجح في بعض الأحيان وأفشل في أحيان أخرى!

وأصل الحكاية أنه حين كنت صبياً صغيراً ظهرت «أعجوبة» جديدة تسامعنا بها وتشوقنا إلى رؤيتها.. هي السينما المجسمة! وقيل وقتها إنها طريقة جديدة لتصوير الأفلام بأجهزة خاصة وبزوايا معينة تهيئ للمشاهد حين يراها مستعيناً بنظارة خاصة أن يرى البعد الثالث.. للأشياء.. وهو البروز عن الشاشة، وانتظرت بشوق عرض أول فيلم من هذا النوع في مدينتي الصغيرة بالوجه البحري، فطال الانتظار ولم تتحقق الأمنية.. ثم قرأت ذات يوم خبراً سعيداً في إعلانات «أين تذهب هذا المساء» يقول إن دار سينما الأهلي في دمنهور تعرض أول فيلم من هذا النوع، فتلهفت على رؤيته وسافرت إلى هناك، وغادرت محطة القطار إلى دار السينما مباشرة.. وقطعت تذكرة لدخول دار العرض.. ولاحظت أن موظف الشباك قد أعطاني مع التذكرة نظارة ورقية، عدساتها من السلوفان الأحمر القاتم.. ونصحني بارتدائها خلال العرض، لكي أرى مشاهد الفيلم مجسمة، ودخلت إلى الدار وصدري يجيش بالإثارة والانفعال، ووجدت كل المشاهدين في القاعة يضعون هذه النظارات الورقية فوق أعينهم ويتعجلون اللحظة التي تبدأ فيها أحداث الفيلم «المجسم»، وبعد انتظار ثقيل أظلمت القاعة وبدأ العرض. وتوالت أحداث الفيلم.. ولاحظت من وراء النظارة بالفعل أن شخوص الفيلم يبدون وكأنهم بارزون عن الشاشة وليسوا مجرد صور مرئية ومتحركة.. وانخلع قلبي حين انطلق القطار بأقصى سرعته فخيل إليّ أنه قد انفلت إطار الشاشة وسيدهم الحاضرين في القاعة.. وحدث نفس الشيء حين ركب بطل الفيلم سيارته وقادها بسرعة جنونية لينقذ فتاته من الموت، وصادف في الطريق منحنى خطراً فانحرف بسيارته المنطلقة بأقصى سرعة لينجو من السقوط في الهاوية.. فإذا بالسيارة تقفز بالفعل - أو هكذا خُيل إليّ - لتدهم الجالسين في أول بنوار على يسار الشاشة! ولم يفارقني الفزع عليهم إلا حين نزعت النظارة من فوق عيني.. فرأيت السيارة مازالت داخل إطار الشاشة والجالسين في أول بنوار بخير والحمد لله.. فأعدت وضع النظارة وواصلت مشاهدة الفيلم مسحوراً ومندهشا!

واستسلمت لهذا السحر العجيب طوال فترة العرض.. وانتهى الفيلم على خير وأضيئت أنوار القاعة.. وخرج المشاهدون يتحدثون ويتعجبون ويتبادلون الرأي حول هذه الأعجوبة الجديدة.

لكنها لم تتكرر بعد ذلك كثيرا.. إذ يبدو أن الاختراع لم يحقق نجاحاً كبيراً يُغري أصحابه بتعميمه في أفلام كثيرة.. أو ربما حلت محله أنظمة الصوت الحديثة التي تخيل للمشاهد بالفعل أن ما يراه على الشاشة أقرب للحقيقة منه للخيال! وبالرغم من ذلك فلقد بقيت من ذكريات الصبا ذكرى هذا الرعب المجسم الذي شعرت به خلال مشاهدتي للفيلم.. وذكرى هذه النظارة الورقية القديمة.

وفي مواقف كثيرة من مواقف الحياة وجدت هذه النظارة ذات العدسات القرمزية القاتمة تقفز من غياهب الذكرى «لتجسم» لي بعض الأشخاص وتتيح لي رؤيتهم بطريقة مختلفة!

فإذا تعاملت مع إنسان عرفت عنه من قبل ميله للشر وإيذاء الآخرين، وتجرؤه على حرماتهم واغتيابه الدائم لهم.. لم أره بمظهره الخارجي شخصاً باسماً أو وسيماً أو أنيقاً، وإنما رأيته على الفور بهذه النظارة الخيالية شراً مجسماً قبيحاً ومنفراً.. وقد أفزع منه فزعي من القطار الذي خيل إلى أنه سيدهم المتفرجين.

وإذا اقتربت من شخص أعرف عنه التزامه الأخلاقي وطبعه الدمث وخشيته لربه رأيته بنفس هذه النظارة إنساناً ملائكياً بديع القسمات والملامح ولو كان يبدو في أعين الآخرين دميماً قبيح الوجه والخلقة. ولا عجب في ذلك.. لأن النفوس الخربة لابد أن تنطبع على وجوه أصحابها بشكل أو بآخر، والنفوس الطيبة لابد كذلك أن تنعكس على صفحة الوجه بالسماح والاطمئنان.

خذ مثلاً ذلك الشخص الكريه الذي يمضي في الحياة شاهراً سيف الأذى يبادر به الغير في كل مناسبة ولا يعفي أحداً من سهام حقده وكراهيته للآخرين حتى يخيل إليك أن قلبه لا يعرف الحب ولو لأبويه وأبنائه وزوجته، ولا يذكر إنساناً بخير.. ولايدع لأحد حرمة دون أن يهتكها بلسانه.. ولايجد فرصة لإيذاء الغير دون أن يستغلها حتى لتحسب أنه لو حضرته الوفاة ذات يوم وزاره مسؤول يملك النفع والضرر للغير وهو في فراش مرضه الأخير.. لهمس له وهو يغالب سكرات الموت بما يوغر صدر هذا المسؤول على أحد من البشر أو يحرضه عليه.. آملاً في أن يختم حياته «خير ختام» وأن يثبت إخلاصه لشيطان الشر حتى الرمق الأخير!

مثل هذا الشخص كيف أستطيع أن أراه بشراً كالبشر له خصائصهم وهيئتهم الآدمية حتى ولو كان يظهر بمظهرهم؟ إن النظارة القديمة «تجسّمه» لي على الفور إذا صادفته في أي مكان في هيئته الحقيقية، وهي هيئة تمزج بين ملامح الشياطين وأجسام الوحوش الخرافية الضخمة التي انقرضت قبل ملايين السنين، وقد ينتابني نفس الفزع الذي داهمني في مشهد السيارة المنحرفة في دار السينما القديمة.. إذا رأيته مصادفة عن بعد.. فكيف يكون الحال إذا اقترب مني؟

وخذ أيضاً ذلك الشخص الذي يجتر أحقاده على الجميع بلا استثناء ويخيل إليّ أنه يجري حسابه كل ليلة في فراش النوم ليراجع كم من البشر نجح في إيذائهم ذلك اليوم.. ويعد «خطته» لأذى الغد داعياً شياطينه أن توفقه في النيل منهم والدس لهم واغتيالهم معنوياً.. كيف أستطيع أن أراه إلا في هيئة مماثلة لهيئة تلك الوحوش الخرافية؟

وغير هذا وذاك كثيرون قد تراهم حولك وقد تسمع عنهم.. وقد تجبرك الظروف على التعامل معهم فتشعر بحاجتك إلى مثل هذه النظارة القديمة لكي تراهم بها في هيئاتهم الحقيقية.. وتتجنب أذاهم.. وتفر منهم فرار السليم من الأجرب.

ولا غرابة في ذلك لأن كل إنسان كما يفكر .. وكما يفعل ويتصرف في حياته، فالتفكير في الخير يجعلك خيراً، ويضفي عليك سلاماً نفسياً ومعنوياً يرشحك لأن تكون من البشر الطيبين الذين عناهم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بقوله: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» ويجمِّل صورتك البشرية في عيون الآخرين أو نظاراتهم، والتفكير في الشر يجعلك شريراً ويحكم عليك بالاضطراب النفسي والمعنوي ويفقدك الإحساس بالسعادة الحقيقية والأمان، ويجعل وجودك في الحياة «محنة» لمن هم حولك يشقون بها ويدعون ربهم مخلصين أن يرفعها عنهم.

وأن تكون إنسانا خيرِّاً مسالماً يأمن الناس أذاه، ويأمن هو شر نفسه أمر ليس صعباً.. بل لعله أسهل الطرق والاختيارات لمن كان ذا بصر وبصيرة، فالحياة واسعة وعريضة وتتسع للجميع، ويمكن لكل إنسان أن يحقق فيها لنفسه ما يأمله دون أن يطأ في طريقه إليه جماجم الآخرين.

ولا يتطلب ذلك منك إلا شيئاً واحداً عبر عنه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بكلمة مفردة هي «الإحسان»، ولقد سئل عنه فقال ما معناه:

«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ولقد رُويَ عن بعض العارفين أن خاله قد دربه وهو طفل عمره ثلاث سنوات على أن يقول لنفسه في فراشه كل ليلة دون كلام: الله معي.. الله ينظر إليَّ .. فمضى يفعل ذلك كل ليلة حتى إذا بلغ السابعة من عمره قال له خاله: أمن كان الله معه وينظر إليه أيعصيه؟ فأجابه بالنفي.. وبفضل هذا التوجيه البسيط أصبح الطفل واحدا من كبار العارفين بالله وهو سهل بن عبد التستري، والمشكلة أنه بعد أكثر من ألف عام على هذا التوجيه.. نشعر أحياناً بأننا نحتاج لأن «نذكر» به بعض «البغال» البشرية الذين يمضون في الحياة وكأنهم وثنيون لا يخشون رباً.. ولا يعرفون إلهاً.. فننبهم من جديد إلى هذه الحقيقة الكونية، وهي أن الله ينظر إليهم وسيحاسبهم على جناياتهم على الآخرين ذات يوم قريب أو بعيد، وأن من مصلحتهم هم قبل غيرهم أن يخشوه بعض خشيتهم لرؤساء العمل الذين يملكون لهم الضر والنفع في الدنيا!

كما يحتاجون أيضاً لأن نذكرهم بأننا لانؤذي أحداً في الحقيقة إلا أنفسنا، وعلى كل إنسان إثم ما يفعل، فليكثر منه أو فليقلل كما يشاء.. فلكل إنسان أن يضع نفسه حيث يراها جديرة به.. ولكل أفعاله ثمن واجب السداد إن لم يحن اليوم فسيحين غداً..

وهذه هي خلاصة التجربة كلها.. لكن من يقرأ ومن يتعلم؟!

بل ومن الذي يستطيع أن يقول مع محتشمي زايد بطل رواية «يوم مصرع الزعيم» لأمير الرواية العربية نجيب محفوظ وهو يراجع حياته ويأمل في رحمة ربه: حسبي أنني لم أقدم الأذى لأي إنسان؟

وترى بماذا سوف يناجي أمثال هؤلاء أنفسهم وهم يراجعون حياتهم في أخريات العمر ويتهيأون للرحلة الأبدية؟ هل سيقول أحدهم:حسبي أنني لم أقدم الأذى سوى لبضع مئات من البشر؟!

أم تراهم سوف يظلون مخلصين للشر والجحود وهتك الأعراض والحرمات والكرامات حتى الرمق الأخير.. حتى يعجزوا عن كل ذلك بحكم الضعف وانعدام القدرة على الشر في نهاية العمر.. فيكونون كمن ينطبق عليهم قول القائل:

_ لم يتركوا الذنوب حتى هجرتهم الذنوب!

أي حتى عجزوا عن ارتكابها بسبب الضعف وضياع النفوذ وانعدام الحيلة.. تماماً كما يكف شارب الخمر عن احتسائها لأنه لم يعد يجد ثمنها.. أو لأن الطبيب أنذره بالهلاك إذا استمر في شربها.. وليس صدوعاً بأمر ربه أو اتقاءً لمعصيته.. أو كمن يكف عن السرقة لضعف البصر وليس لأن السرقة حرام!

وترى كيف ستكون «هيئاتهم» حينئذ من خلال تلك النظارة الورقية القديمة إذا نظر إليهم أحد بها فرأى سجلهم المخزي من الأذى والحقد والغدر والجحود والتطاول على حرمات الآخرين، وانتهاك القيم الأخلاقية والدينية «مجسماً» فوق صفحة وجوههم؟ وألا تشعر أنت بحاجتك إلى مثل هذه النظارة لترى بها حقيقة بعض من يتحركون في الدائرة المحيطة بك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

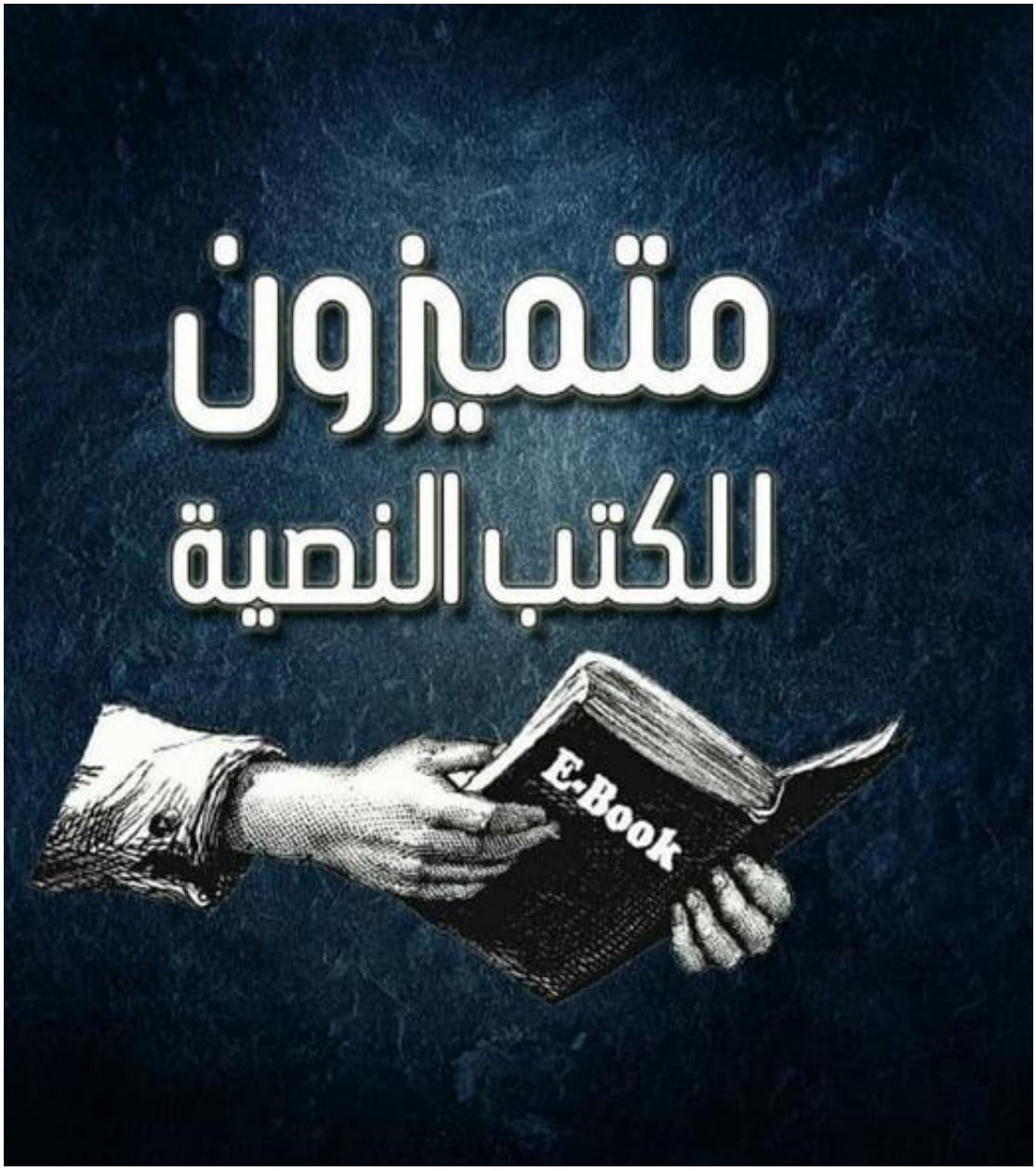
متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس:

عن الكتاب..

مقدمة

ولم أتعلم..!

ساعة الأصيل

الرسم فوق النجوم!

الكتابة بلسع الألم!

كشف حساب

الحب الضائع!

قتلتني يامولاي!

أخيراً.. أصبح حراً

غرباء.. في الليل!

يوميات الحزن.. والخوف.. والألم!

علمته الأحزان نظم القصيد!

كان إنساناً

في الصباح الباكر!

صور من حياتهم:الطيور الخرساء!

الحب من النظرة الأولى!

صور من حياتهم: الباب المفتوح

في الحقيقة!
لاحظ.. ثم لاحظ.. ثم لاحظ!
الضباب الأبيض
أنت كما تفكر!